

البهري المحنولي

عليه السلام
آدم

فَلِسْفَةُ يُقَوِّمُ الْإِنْسَانَ وَخِلَافَتِهِ

الناشر: مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - بعبدين

الطبعة الثالثة

جمادى الآخرة ١٣٩٤ هـ

يوليو سنة ١٩٧٤ م

حقوق الطبع محفوظة للؤلف

السلام

فَلَسَفَةُ بَقْوَةِ الْإِنْسَانِ وَخِلَافَتِهِ

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم ، ونحمد الله سبحانه ، ونصلي ونسلم على رسول الله وآله وصحبه ... وبعد

كان للمناهج التحليلي الذي سلكناه في الكتابة عن أبي البشر « آدم » عليه السلام أثر طيب في قلوب إخواننا القراء ، ظهر في إقبالهم على الكتاب حين صدوره ، وفيما وصلنا من تعليقات نعتز بها ودعوات مباركات ندخرها عند الله سبحانه .

والكتابة عن أينما آدم ينبغي أن تكون ممتدة امتداد الإنسانية ، لأنه سبب وجودها ، ولأن التأمل فيما جاء عنه في القرآن يكشف عن حقيقة النفس الإنسانية الممتدة فينا ، والتي تصدر في سلوكنا عنها .

نعم ، فإن ما قدمنا من ذلك ليس هو الكلمة الأخيرة في نهجه ، فما هو إلا إشارة إلى الباب الذي يجب أن يسلكه الباحثون في عرض قصص القرآن الكريم عرضاً لا يكتفى بسرد الآيات وتصنيفها بحسب موضوعاتها ، وارتباط بعضها ببعض ، بل يضيف إلى ذلك تحليل سنن الوجود ونواميس المجتمع وارتباط ذلك بفطرة الإنسان وشتى مقصده ... فذلك شئيل يفيد علماً غزيراً ، ويكشف عن أسرار حجة ، ويفتح للذهن ألواناً من النظر ، وللبصيرة آفاقاً من العبر الدقيقة تتجدد بها وتتضاعف معرفة الإنسان لنفسه وربّه ، ولما يحيط به من حقائق ظاهرة وخفية ، وعلاقة ذلك كله بمناهج صلاحه ، واستقامة أمره على هدى وصراط سوى .

وأسأل الله سبحانه أن يجعل ما نكتب زاداً لنا ولقرائنا إلى ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، إنه سميع مجيب .

البهى الخولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

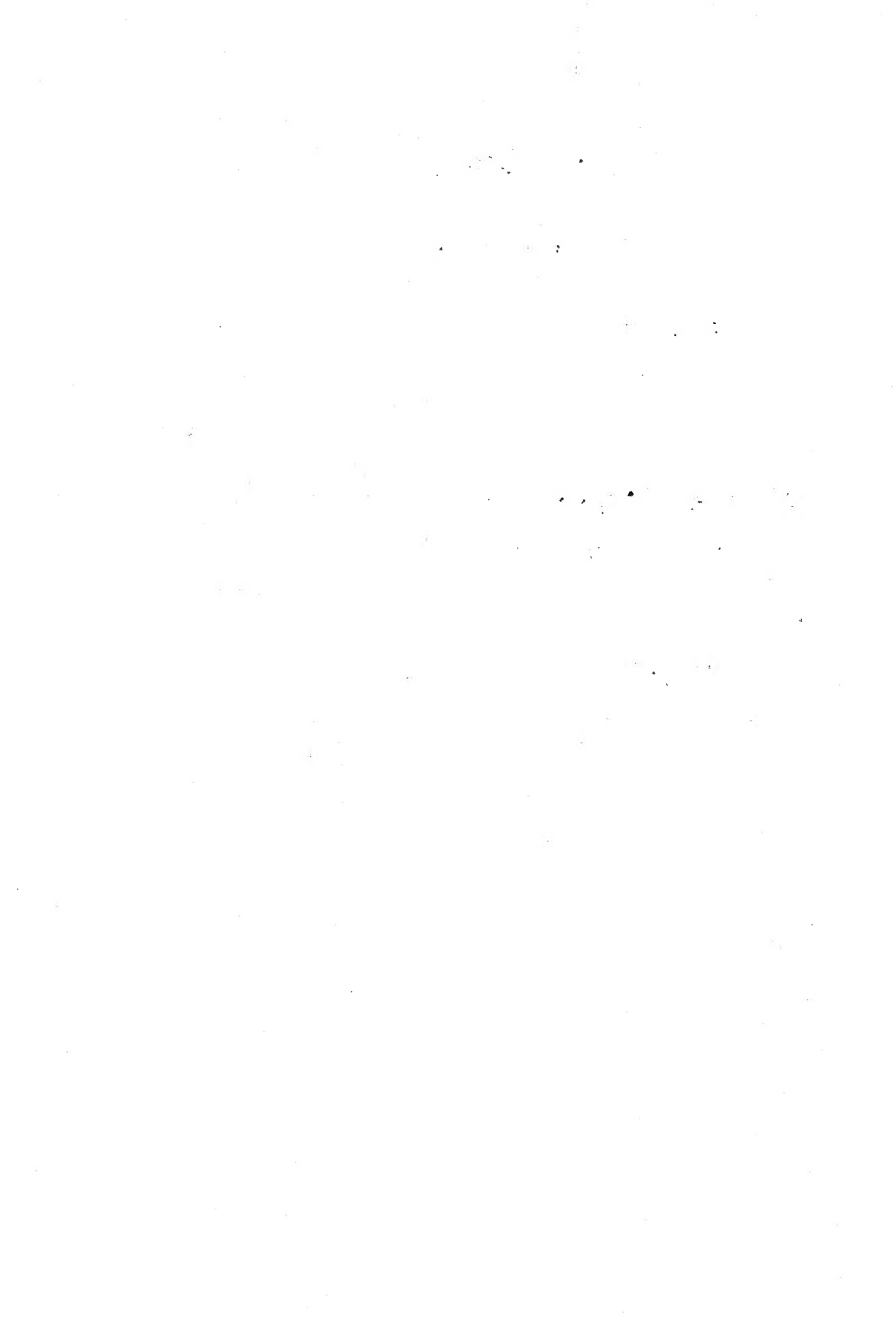
مقدمة. الطبعة الثالثة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام
على إمام المتقين ، وخاتم النبيين ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله
وصحبه أجمعين .

وبعد . فهذه طبعة ثالثة لكتاب « آدم عليه السلام » أضيفت إليها باباً بأكمله
هو باب « الخلافة » فأرجو أن يتقبل الله ما تقدم ، وأن ينفع به ، إنه أكرم
مستول وأفضل مأمول .

البهي الخولي

{ جادى الآخرة ١٣٩٤ }
{ يوليو ١٩٧٤ }



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ (٣٢) قَالَ يَتْلُو آدَمُ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ (٣٤) وَقُلْنَا يَتَّخِذْ أَسْكُنًا أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ (٣٦) فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّاهُ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (٣٩) صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

تخصيص

ملخص :

ليس في الناس من يحفل قصة آدم عليه السلام ، فقد خلقه الله من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ؛ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، فغضب الله عليه وطرده من رحمته ، وقال يا آدم اشكن أنت وزوجك الجنة وكلام من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، وحذرهما أن يفتنهما الشيطان فيخرجهما من الجنة . . . ولكن الشيطان استطاع أن يستدرجهما إلى ما أراد من المعصية ، فأكلا من الشجرة . . . وما لبثا أن أدركهما الندم ، وأقبل على الله يسألانه للتوبة والمغفرة ، فقبل الله منهما ؛ ولكنه أخرجهما إلى الأرض حيث هبط الشيطان ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (١) . . . واستخلف الله آدم وبنيه في الأرض . . . وكانت الملائكة تستشرف إلى هذه المرتبة الرفيعة حين أخبرهم سبحانه أنه جاعل في الأرض خليفة ، ولكن آدم وبنيه ذهبوا بشرف هذه الكرامة لما ميزهم الله به من المواهب والأسرار التي تؤهلهم لذلك .

* * *

ذلك هو ملخص قصة آدم عليه السلام — على ما يقصها القرآن الكريم ؛ وقد سبقنا إليها علماء أفاضل : كل عاجلها بالأسلوب الذي يروقه ، وتناولها من زاوية النظر التي بدت له ، فالتمالي له نهجه في عرائسه ورواية الأخبار غير المقبولة ، وأستاذنا العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار — رحمه الله — نص في كتابه على الطريقة التي اتبعها في العرض ؛ وآخرون رأوا أن يسلكوا نهجاً تربوياً فيه يسر على ناشئتنا الذين لم يألفوا معاناة هذا الضرب من القصص .

وقد استخرت الله - سبحانه - أن أعرض لهذه القصة السكرية من جانب آخر ؛ فهي قصة تكوين البشرية ، ومبدأ تقلبها في الغواية والرشد ، ومهمتها الخطيرة التي اختيرت لها في هذه الأرض .

عناصر البحث :

ومعلوم بالضرورة أن الإنسان ليس مخلوقاً أرضياً بحتاً ، ولا روحياً بحتاً ؛ بل هو مزاج من المادة والروح . . . وتبدأ القصة بتقرير هذا الأصل إذ يقول سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ^(١) ﴾ .

واختلط سر الروح بخصائص التراب ، ونشأ من تلاقيهما أو تفاعلها في هذا السكبان البشري ضرب من الحياة فيه من الروح سر النزوع إلى الله ، وفيه من التراب طبع الركون إلى المحسّات . . أو قل : نشأ من تلاقيهما فيه مجموعة من القوى الفطرية تتنازع ، هي التسوى التي أقاض علماء النفس في تحليلها وشرحها وسموها : « الفرائز » .

* * *

وفي القصة كثير من الإشارات إلى بدء نشاط هذه الفرائز ، وظهور آثارها في عالم الواقع لأول مرة .

ففي قوله تعالى : ﴿ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ : قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى ^(٢) ﴾ إشارة إلى غريزة حب البقاء والحفاظة على الذات التي عمد إليها الشيطان ، فجعل يستثيرها في نفس آدم حتى زين له الأكل من الشجرة ، وأوقعه في المعصية .

(١) سورة ص : ٧١ ، ٧٢

(٢) سورة طه : ١٢٠

وفي قوله تعالى : ﴿ قَوْسُوسَ لَهْمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهْمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سُوءِ آتِهِمَا ﴾^(١) إشارة إلى تطور الغريزة الجنسية بظهور أعضاء التناسل ؛ فقد كانت هذه السوءات مستورة عنهما بنص الآية الكريمة ، ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهْمَا سُوءُ آتِهِمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾^(٢) . . . أين كانت هذه السوءات قبل الأكل ؟ وكيف بدت وظهرت بعده ؟ وما علاقة هذه الشجرة بذلك ؟

وهناك إشارات إلى ما في بشرية الإنسان من ضعف . . وغفلة . . وتطور عن رعاية الحدود ، مما يعتبر مزالق تزل منها الأقدام إلى المعصية . . كما أن هناك أخرى بإزائها تشير إلى أثر الروح الإلهي حين يشرق في النفس عند تبين الخطيئة ، والندم عليها ؛ فلا يجد المرء لنفسه ملجأ من الله إلا إليه ، فيقبل عليه في إنابة وخضوع : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَرَحْمَتَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٣) .

فنحن — اذن — بإزاء قصة التكوين ، والنشوء ، وظهور قوى الانسان الغريزية لأول مرة في مجال نشاطها الواقعي .

* * *

ولابد لهذا الخلق الممتاز من رسالة ومهمة يؤديها في هذه الأرض . . فما كان الله سبحانه ليخاق شيئاً عبثاً ، وما كان جل شأنه لينفخ من روحه في هذا السكان إلا ليعده لأمر جليل يتكافأ مع شرف الروح العلوى . . ولقد أشار سبحانه إلى هذا الأمر ، وهو يعرض قصة آدم ، أو تسكوين هذه البشرية ونشوءها فقال جل ثناؤه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾^(٤) فالخلافة هي الرسالة أو هي الأمر الجليل الذي رشح له الإنسان ؛ وهي خلافة عن الله سبحانه في عمارة هذه الأرض عمارة روحية مادية .

(٢) الأعراف : ٢٢

(٤) البقرة : ٣٠

(١) الأعراف : ٢٠

(٣) الأعراف : ٢٣

والبشر لم يجهز لأداء هذه الرسالة بفرائزه الحيوانية فحسب ، ولا بمخصائصه الروحية فقط ؛ وإنما جهز بما ينظم ذلك كله ، ويلائم بين بعضه وبعض ، ويجعل منه قوة إنشائية مباركة تعمّر الأرض على هدى وصراط مستقيم ، تلك الموهبة هي : الاستعداد الفطري للتعلم ، فلا يفتأ باحثاً مستشرقاً لمعرفة ما يعرض له من حقائق الأشياء بهذا كله كان الإنسان أصلح لخلافة الله في هذه الأرض من الملائكة الذين لا يملكون ما يملك من المواهب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ : أُنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

تلك هي الغمصة الكبيرة البارزة في قصة أبي البشر عليه السلام .
١ - التكوين .

٢ - بدء ظهور الفرائز والقوى الحيوية في مجالها الواقعي .

٣ - المهمة الخطيرة التي أسندت إلى البشر في هذه الأرض .

والله سبحانه وتعالى إذ يقص علينا هذا القصص لا يريد مجرد الإخبار وإفادة التاريخ ولا يقصد أن يسوق للمتفهمين دروساً في التشريح الجسماني والتحليل النفسي . وإنما يمحّص تاريخ هذه الحوادث أو حوادث هذا التاريخ ليعرف الإنسان حقائق تكوينه ، ودقائق مواهبه وقواه ، ويدرك صلته بما حوله من آفاق الكون الظاهرة والباطنة ، ليقم تصرفه مع قوانين كل أفق بما يركي نفسه ويصلح أمره ويتفق مع أصول رسالته التي أسندت إليه في الأرض . . . وعلى ما فهمت من هذا النهج أحاول علاج هذه العناصر الكبيرة ، والله أسأل أن يمحّصنا زيغ العقيدة ومضلات الهوى ، وأن يثبتنا على الحكم الواضح من كتابه ، فلا نركن إلى ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . إنه نعم المولى ونعم النصير ، وهو المستعان ، وبه التوفيق !!!

الباب الأول

التَّكْوِينُ

اذ قال ربك للملائكة
انى خالق بشراً من طين
فاذا سويته ونفخت فيه من
روحي فقعوا له ساجدين •

(١)

عناصر التكوين

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَاذْأَسُوْهُنَّ وَفَخَزَّ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَصَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾^(١)

١ - تمهيد :

تعرض القرآن الكريم لبدا الحياة في هذه الأرض فقال سبحانه ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢) .. وهذا الذي قرره القرآن منذ قرون يقرره العلماء الآن ، إذ يقولون : إن أول ظهور للحياة في هذه الأرض إنما كان في الماء في صورة كائنات ضئيلة جدا تحمل سر الحياة القابلة للنمو والتكاثر والتطور والتنوع ... وتكاثرت فعلا هذه الكائنات الضئيلة ، وتطورت ، وظلت تعيش في الماء ما شاء الله لها ، ثم أخذ بعضها يدرج منه إلى وجه الأرض يعيش عليها ، وتأقلم ذلك الذي درج إلى سطح اليابس ، وتكاثر وتطور ، فكان منه مانع من أنواع الحيوان ، ومالا نعد ما انقرض نسله ، وغير عده .

ذلك ما يقرره القرآن ، ويقرره العلم عن بدء الحياة في هذه الأرض ، وهو تقرير يدل على أن الأرض عرفت كثيراً من أنواع الأحياء المائية والبرية قبل أن تعرف هذا الإنسان الذي يسكنها الآن بدهور تعد بالملايين .. فلما خلق الله سبحانه آدم كانت الأرض حافلة بأصناف النبات والطيور والدواب ، ولم يأمره سبحانه بالهبوط إليها إلا بعد أن علمه أسماءها وخواصها ، وسر تذليلها والارتفاع بها ، وإليه الإشارة بقوله عز وجل : ﴿ وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٣)

(١) سورة ص : ٧١ ، ٧٢ (٢) سورة النور : ٤٥ (٣) - سورة البقرة : ٣١

(٢م - ادام)

٢ — صلة آدم بن سكنوا الأرض قبله .

وقد رأى بعض الباحثين فى قصة آدم أن يناقشوا « نظرية داروين » التى تقول : إن الإنسان ترقى عن أصل سابق مغاير لما هو عليه الآن : قد تطور بسبب عوامل ذكروها حتى صار إلى ما هو عليه الآن ، وليس أصله آدم كما تقول النصوص الدينية ... وردوا تلك النظرية بأنها لم تزل موضع البحث ولم تبلغ مرتبة العلم اليقيني بعد .

ويقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله : « فإذا وصل أصحاب هذه النظرية إلى الأدلة القاطعة التى تجعل هذه القضية بديهية تساوى فى بدايتها : السماء فوقنا والأرض تحتنا . كان لزاما علينا أن نؤول القرآن ليوافق الواقع كما هى القاعدة القائلة : إن القرآن يؤخذ على ظاهره بدون تأويل إلا إذا منع من ذلك مانع فيعمد إلى تأويله ^(١) » .

وأرى أن ذلك لو حصل — وهو بعيد جدا — فإن مرونة آيات الكتاب الكريم — وأعنى بالمرونة سعة آفاقها — تغنينا عن « التأويل » الذى يتوقمه أستاذنا الكبير رحمه الله — أو على الأقل سيكون التأويل بحيث لا يبلغ الدرجة التى يتصورها القارىء من عبارة الأستاذ التى نقلناها ، ومن يرجع إلى الآيات التى تتحدث عن بدء خلق الإنسان يقتنع بما نقول . ونكتفى عن إيرادها كلها بإيراد قوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ^(٢) ... فالمرونة التى ترى فى هذه الآيات الكريمة وغيرها كفيلة بإقرار العقيدة التى أرساها الدين فى قلوبنا ، ولا

خوف عليها مما يأتينا به هؤلاء ، ولا سيما أن نظريتهم لا تقول بأن الإنسان أصله
نقود كما يسبق إلى ذهن من لا علم لهم .

على أن ذلك مبحث لا يعود علينا بشيء من النفع في ديننا ولا في آخرتنا ،
فالإنسان الحالي وجد نفسه على الأرض على التقويم الذى هو عليه الآن .. وصلاحه
فيها إن يكون إلا بما يفعل من خير ، وما يبذل في إصلاحها من جهد ... وهو في آخرته إن
يؤخذ بما كان من أصله أيا كان هذا الأصل ؛ إذ ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ،
وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾^(١) ورحم الله أمراً شغل نفسه بما
يصلح معاشه ومعاده .. وهذا كلام ربنا سبحانه يقول فيه : إنه خلق الإنسان من
طين ، ثم سواه وفتح فيه من روحه ، وهو كلام فيه كل الكفاية لما نريد من خير
الدنيا والآخرة .

٣ - عناصر الطين في الإنسان

أما أنه — سبحانه — خلق الإنسان من طين أو تراب ، فذلك ما يؤيده
الواقع ، ويقره العلم .. فلو أنك أخذت قبضة من تراب الأرض . وقطعة من جسم
الإنسان ، وأجريت على كل منهما عمليات التحليل الكيموى لوجدت العناصر
التي يتركب منها الجسم ، مأخوذة من العناصر التي يتركب منها التراب ، مع اختلاف
مقدار كل عنصر تبعاً لأهمية الوظيفة التي يؤديها في الجسم ... ونورد فيما يلي جدولاً
علمياً للتركيب الكيموى لجسم الإنسان نقلاً عن « كتيب المكتب الوطنى للقياسيات
رقم ٤٧ » .

الغصنر	وزنه فى الجسم بالجرامات	الغصنر	وزنه فى الجسم بالجرامات	الغصنر	وزنه فى الجسم بالجرامات
الأكسجين	٤٥٠٠٠	الفوسفور	٧٠٠	المغنسيوم	٣٥
الكربون	١٢٦٠٠	الكبريت	١٧٥	الحديد	٤
الأيدروجين	٧٠٠٠	البوتاسيوم	١٤٠	النحاس	٠.١
الأزوت	٢١٠٠	الصوديوم	١٠٥	المنجنيز	٠.٢
الكالسيوم	١٠٥٠	الكالور	١٠٥	اليود	٠.٣

وهذا الجدول لم يتضمن إلا أهم العناصر .

وقد كتب إلينا الأستاذ الدكتور على مطاوع عميد كلية الطب بجامعة الأزهر ما يلى :

(أ) عدد العناصر فى الأرض ٩٢ عنصرا .

(ب) وهناك عناصر استحدثت صناعيا — وهى غير العناصر الطبيعية الموجودة .

فى الطبيعة .

(ح) خلق الإنسان من جميع عناصر الأرض .

(د) نسبة العناصر فى جسم الإنسان تختلف باختلاف الوظيفة التى يقوم

بها العنصر فى الجسم ، فالكالسيوم والفوسفور مثلا يكونان الهيكل العظمى ،

ولذا يوجدان فى الجسم بنسبة أعلى من نسبة كثير من العناصر ، فإن بعض تلك

العناصر النادرة يوجد فى الجسم بكميات ضئيلة قد تصل إلى أجزاء من مليون

من الجرام ، وهذه تقوم بدور العوامل المنشطة لبعض الحماض فى بعض خلايا الغدد

الخاصة فى الجسم مثل الكوبالت فى فيتامين ب ١٢ . ويوجد فى البتركرياس ،

ويلزم لصنع الكرات الدموية الحمراء ، وفى بعض هذه الوظائف الأخرى

لخلايا العصبية .

• هذا والعناصر المذكورة تنتقل من تربة الأرض إلى جسم الإنسان

بما يتناوله الرء من الأطعمة والأطعمة إما نباتية وإما حيوانية .

فالنباتية مؤلفة من عناصر الأرض على ما ذكرنا ، إذ النبات إنما يستمد غذاءه من تربة الأرض أى من نفس هذه العناصر .

والأطعمة الحيوانية - أى لحوم الحيوانات - مؤلفة من العناصر التي تتألف من الأطعمة النباتية ، إذ الحيوان يعتمد في بناء جسمه على النبات .

وعندما يموت الإنسان والحيوان والنبات تبلى أجسامهم ، وتتحلل إلى عناصرها الأولى ، وتعود إلى الأرض . . ! فتم دورة كاملة للعناصر المذكورة ، تبدأ من الأرض . . فجسم النبات والحيوان . . فجسم الإنسان . . وتنتهى إلى الأرض . . وصدق الله العظيم : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (١) .

٤ - معنى الروح :

أما قوله جل ثناؤه : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ (٢) فأمر دقيق خطير كثير للمازلق ، ولا نحب أن نتكلف فيه ما ليس لنا به علم ، وحسبنا العلم الذي يبدو لنا من ظاهر قوله سبحانه : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ . . على أن يكون مفهوما أن الله عز شأنه إذ أسند النفخ إلى ذاته فقال : ﴿ وَنَفَخْتُ ﴾ لا يريد أن الله نفخا على ما يجري منا ، فليس كمثل شئ وهو السميع البصير . . فليعتقد كل إنسان أن النفخ حصل ولايجنب نفسه تصور الهيئة التي جرى عليها ، فشكل ما خطر ببالك فالله بخلافه .

أما الروح الذى أضافه سبحانه إلى نفسه في قوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ فيجب أن نعتد في فهمه على القرآن الكريم نفسه ، فمن قال به صدق . ومن حكم به عدل . . وقد قال العلماء : إن الروح جاء في القرآن الكريم على عدة أوجه (٣) .

(٢) الطجر : ٢٩ .

(١) طه : ٥٥ .

(٣) من كتاب الروح لابن القيم بتصرف ص ٢٢٩ .

١ — الروح المذكور في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ ^(١) ﴾ وفي قوله : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ^(٢) ﴾ وهو روح عظيم من أمر الله لم يذكر لنا شيئاً آخر عنه .

٢ — الروح بمعنى جبريل عليه السلام : وذلك قوله سبحانه : ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ^(٣) ﴾ فان هذا الروح الأمين هو جبريل ، إذ المعروف أنه هو الذي كان ينزل بالوحي من الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ^(٤) ﴾ كذلك روح القدس لقوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ^(٥) ﴾ .

٣ — عيسى عليه السلام إذ سمي بأنه روح من الله في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمَتْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ^(٦) ﴾ .

٤ — الروح بمعنى الوحي ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ^(٧) ﴾ وقوله : ﴿ يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ^(٨) ﴾ .

٥ — روح منه تعالى يسكون به استعداد الإنسان لمعالي الصفات ، وموالات الحق ، بحيث إذا تعهد هذا الاستعداد كانت منه صفات القوة والعزة والرفعة ونحوها مما يتم به التأييد والنصر ، وهو في قوله تعالى :

(٣) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤

(٦) النساء : ١٧١

(٢) القدر : ٤

(٥) النحل : ١٠٢

(٨) النحل : ٢

(١) النبا : ٣٨

(٤) البقرة : ٩٧

(٧) الشورى : ٥٢

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ...﴾ إلى قوله :
أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ^(١) .

فأى هذه الاستعمالات الخمسة يتضمن الروح الذى نفخه الله فى الإنسان ؟

إن العقل لا يطمئن إلى أنه الروح الذى يقوم والملائكة صفا . . ولا أنه هو جبريل ، ولا عيسى عليهما السلام . . وكذلك ليس هو الوحي . . فبقى الأخير ، وهو الروح الذى يكون به استعداد الإنسان لموالاته الحق ومعالى الصفات ، وهو الذى اختاره الإمام ابن القيم ، والنفس إليه أميل . .

ونحن نستبعد أن يكون المراد بنفخ هذا الروح هو إجراء الحياة الحيوانية فى بدن آدم عليه السلام ، للحقائق الآتية :

(أ) أن الروح لم يذكر فى القرآن الكريم بهذا المعنى قط ، وهى حقيقة أدركها الإمام ابن القيم وذكرها فى كتاب « الروح » ^(٢) .

(ب) إن الحياة الحيوانية أمر مشترك بين الإنسان والحيوان ، فليس له من جلالة الشأن ما يستحق أن تسجد له الملائكة حين يجرى فى بدن آدم .

(ج) ورد فى الحديث الصحيح عن الشفاعة أن الناس من هول القيامة يأتون آدم يشفع لهم عند الله فيقولون : « انت آدم أبو البشر . خلقك الله بيده ، ونفخ فىك من روحه . الخ » ^(٣)

فلو كان النفخ فى آدم هو الحياة الحيوانية المشتركة بين الإنسان والحيوان لما رآها المؤمنون خصوصية ترشحه لمقام الشفاعة فى القيامة .

(٢) من كتاب الروح لابن القيم بتصرف ص ٢٢٩

(١) المجادلة : ٢٢

(٣) حديث الشفاعة : رواه مسلم

(د) هذا إلى أن الواقع فعلا من أمر الإنسان في هذه الأرض يرشد إلى أنه ممتاز بخصوصية في إدراكه وصفاته جملة سيد هذه الأرض المتصرف في كل ما فيها من ظاهر وخفي ، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝ ﴾ .

• فالحياة في آدم لم تكن حيوانية صرفة، إنما كان يلابسها سر الطبيعة القدسية التي أمد الله بها كيانه ، فكانت سبب ما يعزى إليه من كالات وإقبال على فضل السماء . .

• (۱) الاسماء : ۷۰ •

(٢)

خصائص العناصر

اولاً - خصائص الحس :

١ - روى أبو موسى الأشعري عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أنه قال :

« ان الله عز وجل خلق ادم من قبضة قبضها من جميع الارض ؛ فجاء بنو
ادم على قدر الارض : فجاء منهم الاحمر والاسود ، وبين ذلك .. والسهل والحزن ..
والطيب والخبيث (١) » .

ويمكن أن يسكون هذا الحديث أصلاً من أصول علم النفس ، واسكننا
نعرض له من ناحية المقابلة التي عقدها رسول الله بين صفات الأرض ، وصفات
طبيعة البشر .. فأدم - عليه السلام - أبو البشر خلق من جميع تراب الأرض ...
والأرض منها الأحمر والأسود ، وبين ذلك ، فجاء بنوه لهم ألوانهم المختلفة ...
والأرض منها السهل الذي تطيب النفس لرؤيته والسير فيه ، فجاء من الناس من
هو سمح الخليقة يألف الناس ويألفونه لماله من سهولة الطبع والمعاملة ... ومنها ما
هو حزن - والحزن هو الأرض الوعرة الغليظة التي يشق فيها السير لما فيها من
صخور وحجارة وعقبات .. فجاء من بنيه صنف غليظ خشن الطبع يعانى الناس
منه ألواناً من الشراسة وسوء المعاملة ... وهكذا إلى بقية الحديث ..

والرسول عليه السلام لا يريد أن يقول : إن البيض أو الحمر من الناس لم
يحيثوا كذلك إلا لأنهم من أرض بيضاء أو حمراء ولا بد .. وأن الطيب والخبيث
من الناس لم يحيثوا كذلك إلا لأنهم من أرض كريهة التربة أو سيخة ولا بد ، فكم
من خبيث وهو من أرض جيدة ، وكم من طيب وهو من أرض جدبة .. ذلك
إلى أن السهولة والحزونة في طبيعة الأرض ذات مفهوم يغير صفة السهولة والحزونة

(١) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح

في بشرية الإنسان ، فالأولى حسية ظاهرة تدرك بالحس الظاهر ، والثانية معنوية تدرك بالقوى الباطنة .. إنما جاءت في الحديث الشريف بين « جملة » صفات الأرض و « جملة » صفات بشرية الإنسان ليميز المشابهة الواضحة بين هذين الطرفين ، وليدل على الرابطة الرمزية بين أوصاف الجبلية البشرية ، والطينية التي خلقت منها فكأن أن من الأرض ما هو سهل بطبيعته ، وما هو حزن بطبيعته ، فإن من الناس — تبعاً لذلك — ما هو سهل بطبيعته ، وما هو حزن بطبيعته ، والحزن هو الأرض الوعرة الغليظة التي يشق فيها السير لما فيها من صخور وأحجار وعقبات ... ولا شك أن العلاقة واضحة بين حال تلك الأرض ، وحال ما يقابلها من نفوس خشنة غليظة ، يعاني منها الناس ألواناً من شراسة الطبع وضوء المعاملة . وما يقال عن السهل والحزن يقال عن الطيب والخبيث .

وفي هذا الحديث النبوي الكريم إشارة إلى أن الخلق الحسن أو القبيح قد يكون طبيعة في معدن المرء ، لا منحدرًا إليه عن وراثة ، ولا مجلوباً له بكسب أو مجاهدة ..

فكما يكون المكان سهلاً ، ولافضل له في سهولته ، أو حزنًا ، ولايدله في تلك الحزونة ، نرى من الناس معادن طيبة تثمر الصنيع الحسن دون أن يكون لأصحابها فضل فيه ، ومعادن خبيثة ترسل الشر على سجيتهما عفواً بلا تكلف .. وفي هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » (١) .

وهذا مبحث من مباحث علم النفس نعرض له — في هذا المقام — من حيث نظر الإسلام إليه وحكمه على صاحبه .. فالإسلام الحنيف لا يسوى بين من

(١) قال السخاوي في المقاصد الحسنة أخرجه الطيالسي والبيهقي وأصله في الصحيح

يأتى الخير وله فيه نية تبتغى مرضاة الله ، وبين من يظله ولا نية له ولا فقه فى شيء ، فأولئك الذين ينطوون على معادن طيبة وطباع سمجة ، لا يكتب لهم أجر ما يفعلون من خير إلا إذا كانت لهم نية وفقه مستمد من معرفة الله ، وإلا فكيف يكتب الله أجراً لأمريء لم يرفع إليه عمله ، وكيف يثيب على عمل لم يفكر فيه صاحبه فى ثوابه ؟ .

فالخير فى الاسلام ليس خيراً إلا إذا ابتغى به وجه الله ، والعنصر الطيب ليس طيباً إلا إذا استنار بمفرقة عز وجل . وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام :

« خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا »

ولا شك أن هذا مذهب جليل فى تقدير الرجال والأعمال : يصحح الأوضاع ويعرف لكل ذى قدر قدره ، ويعلو بالمجتمع إلى مستوى رفيع من الكمال ، إذ يجعل الأقوال والأعمال جميعاً منوطة بغاية واحدة ، ومثل أعلى هو الله وحده سبحانه . . . قالت عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها : « يا رسول الله : ان عبد الله بن جعدان كان يطعم الطعام — فى الجاهلية — ويفعل كيت وكيت من المعروف أينفعه ذلك عند الله ؟ قال : لا ، لأنه لم يقل يوماً : رب اغفرلى خطيئتي يوم الدين »

فلا بد من النية ، ولا بد من فقه المثل الأعلى ، ولا بد من الإرادة ، وكل ذلك ليس من خصائص الطين ، ولا يستطيع التراب أن يمد المرء بخلاصة واحدة منه .

٢ — فى ضوء هذه الرابطة الرمزية يمكن أن ننظر فى الآيات الكريمة

التي تضمنت معنى خالق الإنسان من طين . .

(أ) قال تعالى : إنه خلق آدم من طين ، وذلك قوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ، فَبَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

مِنْ رُوحِي فَعَمُوا لَهُ سَاحِدِينَ ﴿١﴾ والمراد بهذا البشر هو آدم عليه السلام ،
إذ هو الذي سجدت له الملائكة .

(ب) وشأن آدم من حيث أنه خالق من طين هو شأن أبنائه ، وذلك قوله
تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾

(ح) ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾
قال في المصباح المنير : السليل : الوليد ، والسلالة : الولد أيضا . وقال في لسان
العرب : والنطفة سلالة الإنسان . . وقال أيضا : فقوله عز وجل : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ) . أراد بالإنسان ولد آدم — جعل الإنسان اسما للجنس ،
وقوله : مِنْ طِينٍ ، أراد أن تلك السلالة تولدت من طين خلق منه آدم
في الأصل .

وقد رأى بعض المحدثين أن السلالة معناها : « الصفوة المتقاة المختارة المصفاة ^(١) »
والذي نراه أن حمل كلمة السلالة على أنها النسل والولد هو الحق ، دون حملها
على أنها الصفوة المتقاة المختارة المصفاة « من طينة الأرض ، لأن الحديث الذي
أوردنا يقول : « أن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض : فجاء بنو آدم على
قدور الأرض . . إلى أن يقول : « منهم الطيب والخبيث » فهى قبضة قبضها من جميع
الأرض ليس فيها اصطفاء ولا اختيار . . ولا سيما أنه يقول : « وجاء منهم
الطيب والخبيث » وليس من يقول : إن القبضة التى تتضمن الطيب والخبيث هى
الصفوة المتقاة المختارة المصفاة .

(١) هو فضيلة المرحوم الشيخ محمد بن فتح الله بدران في كتابه الفطرة والعقيدة ص ٦١
وهو بهذا الرأي يريد أن يقول لأن من كرامة الإنسان على الله أنه أحسن اختيار طينته ، وليسكن
الجنة والنصوص لا تؤيده ، إلى أن الله تعالى وصف تلك الطينة في موطن آخر من القرآن بأنها
« من حمأ مسنون » أى من طين أسود متشنج والحق أن الروح هو مقد تلك الكرامة .

(د) — ويقول تعالى: ﴿وَأَمَدَ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ويقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقُمْوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ .. قال في لسان العرب: الحماة والحما: الطين الأسود المتقن ..

وأما الصلصال في قواه: «من حمأ مسنون» . فمعناه على ما جاء في لسان العرب: «الطين اليابس الذي يصل من يسه، أى يصوت»، ويقول: «إن الطين اليابس هو صلصال، ما لم تحمه النار، فإذا مسته النار فهو حينئذ فخار» .. وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: «أصل الصلصال تردد الصوت من الشيء اليابس .. وسمى الطين الجاف صلصالا» .

وظاهر من هذا التقرير اللغوي أن آنية الصلصال أقل تماسكا من آنية الفخار التي انضجتها النار، فهي يابسة قليلة التماسك، تحدث الصوت أى تصلصل إذا قر عليها مثلاً ..

(هـ) — ويقول تعالى في هذه الطينة: «خلق الإنسان من صلصال كالفخار» .. فهي ليست فخاراً، إنما هي «كالفخار» .. وكما ذهب صاحب «الغطرة والعقيدة» ^(١) إلى أن السلالة هي الصفوة المنتقاة .. إلخ، ذهب إلى أن صفات الفخار هي صفات تلك الطينة؛ يريد بذلك الإشادة بتكريم الله للإنسان، فقد نقل بتصريف عن مقاييس اللغة لابن فارس: «أما الفخار: فأصله واحد يدل على العظم والقدم .. ومنه الفخر والفاخر .. ويمبر عن كل نفيس بالفاخر» .. مع أن الفخار الذي يعنيه ابن فارس غير الفخار الذي معنا في الآية، وقد نص

(١) الغطرة والعقيدة: ص ٦٤ .

ابن فارس نفسه على ذلك في معجمه بقوله : « وما شذ عن هذا الأصل الفخار من الحرار ، وهو معروف » . . فالفخار في الآية السكرية لا يحمل معنى التفاضل التي يراد نسبتها لطينة الإنسان ؛ فكيف والطينة ليست فخارا ، بل هي « كالفخار » بنص القرآن .

٣ - ونخرج مما قدمنا بأن لطينة الإنسان الصفات الآتية :

(أ) السواد والنتن .. « حمأ مسنون » .

(ب) الصلصال وقلة التماسك .. « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال » .

فإذا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد فتح باب الرمزية ، إذ بين لنا أن صفات طينة الإنسان لها ما يقابلها على سبيل الرمز في صفات بشريته ، فما عسى أن يقابل صفات السواد والنتن .. والصلصال ، وقلة التماسك في تلك البشرية ؟ . ونريد بالبشرية — ما للإنسان من غرائز تجنح به إلى حياة الحس وطبيعة الحيوان .. وهي قد تركزت به إلى أناية الحس ، فيكون حب الذات — حب بقائها .. وعافيتها من كل نصب .. وإيثارها بكل عرض — هو الوجه لهما ، المخطط لكل عمله وتصرفه .. ويكون ذلك هو المعدن المتضمن لسكل ما ترمز إليه من خصائص الحمأ المسنون ، والصلصال ..

× فسواد الحمأ يقابله في تلك البشرية غموض المرء أى عدم وضوحه وصراحته ، وجنوحه إلى التخفى بالدسائس والخديعة ، ونصب المكائد ، والغيلة والغدر ، وكل فعلة سوداء يدبرها الجبن في خفية الظلام لا تحت أسماع الناس وأبصارهم . . كالرشوة ، والتزوير ، والاختلاس ، والمساومة القذرة لتيسير منفعة باطلة أو السكوت عن طواظ مريب .

ونتن الحمأ يقابله أمران :

الأول ، ما يصدر عن المرء من أفعال دينية تدعو إلى الاشتيزاء وانقباض

النفس ، كابتذال الكرامة والتضعف لدوى الجاه زلفى إليهم ونيل رضاهم والتجسس والوشاية ، والنفاق ، وإهدار العرض والاتجار بالضمير والمقدمات فى أسواق الرأى والقلم ، وميادين التحلل ..

والثانى « مقومات » الضمير نفسه التى تصدر عنها الأفعال السابقة .. ونعنى بها « الحالة النفسية » التى تقابل حالة الطين إذا أنتن ، إذ يندرج بها المرء خبيث النفس دنساً ، بحيث لو تسنى لنا أن نبصر المعنويات : أو نشمها ، لأبصرنا وشمنا ما هو أشد كرامة من الجيف ، ورحم الله أبا العتاهية إذ يقول :

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا بين جنبه فضوح^(١)

وقد تلقى أحد هؤلاء وأنت تعرفه ، فإذا مجرد القرامة يكشف لك منه عن خسة خبزر ، فتعس كأنك تحذره وتنقبض منه ، فإنّ للنفوس سمات باطنة تبدو على ظاهر الوجه ، أوفى تعبير اللعين ، أو نحوه^(٢) .

تلك إشارة إلى ما يقبل خصائص الحمأ المسنون فى بشرية الإنسان ، وهو أمر جبلى فى كل نفس آدمية ، فإذا تفاوت الناس فى درجة ظهوره بحسب ما لهم من مجاهدات التزكية والتطهير ، فلا بد من غفلة أو فترة ينزع فيها الطبع إلى خصائصه ، ولو على هون ، على ما يقول أحدهم .

ولا بد من أن ينزع المرء مرة إلى الحمأ المسنون ضربة لازب^(٣)

(١) الفصوح : الفتضح

(٢) جاء فى القرآن أن سيما النفوس تظهر فى الدنيا « تعرفهم بسيماهم » وتكون آيين ظهورها فى الآخرة : يعرف المحرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام»

(٣) اللازب : اللازم « وضربة لازب » مثل يبر به عن لزوم الشيء ، قال فى لسان العرب : « صار الشيء ضربة لازب » أى لازماً .

أما ما يقابل صفات الصلصال في الإنسان ، فقد قدمنا أن صفات الصلصال هي قلة التماسك ، والصلصلة . . وقلة التماسك تبدو في تهالك الحسين الماديين على مطالبهم الغريزية ، وأغراضهم ، أو عجزم عن الجهود التي يتطور بها الإنسان من طينة الجأ إلى القيمة العلوية التي سجدت له بها الملائكة . . وهي جهود تتمثل في الصبر عن شهوات النفس ، والثبات على المشقة في تحقيق المثل العليا ، مع ما يقتضيه ذلك من مكارم البذل ، وصنع المعروف ، والاهتمام بمواساة الناس ، وفك ضوائقهم ، وإبطال الباطل ، ومكابدة الهواجر ، ونواشىء الليل ، تصفية للنفس ، وسموا إلى الله . . . إن قلة التماسك تبدو في تناقل الحسين الماديين أو نكولهم عما ذكرنا من تكاليف الصمود إلى القمة ، وتهالكهم في مطالب الغرائز ، وشهوات الدنيا ، وحسبهم من ذلك أن تكون لهم صاصمة أو شاشنة باطلة عن فضائل النفس شأن الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويحبون أن يمدوا بما ليس فيهم . . وما أعجب ما تذكر اللغة في صاصمة البخار إذ يقول الراغب الأصفهاني إنه « سمي بذلك لصوته كأنما تصور بصورة من يكثر التفاخر » وحسبك بمجتمع تقاهة أن ينوء كاهل أفرادهم بحمل المكارم ، فلا يكون حظهم إلا فيهقة الأدياد الذين لا يقيمون لله سنة في قول أو عمل . . .

وبعد ، فهذا مبحث عميق واسع الآفاق ، ولسكنا نجزيء منه بما قدمنا ، ونكتفي بأن نقرر أن بشرية الإنسان صلبية من حيث قدرتها على إبداع الفضائل ، أو الإمداد بها ، وألا سبيل الإنسان إلى تلك الفضائل إلا أن يمنحه الله من لدنه منحة علوية . . .

ثانيا : خصائص الروح

- ١ — وقد منحنا الله هذا الفضل فنفتح فينا من روحه ، فكان للإنسان — إلى بشريته — عنصر علوى يتضمن الاستجابة لإبداع أكرم المثل ، وأشرف الفضائل .

ولا بأس أن نعيد هنا ما قررنا سابقا من أن الروح الذى نتحدث عنه ايس هو الروح الذى يحيا به البدن ، إما هو — كما قلنا الآن — عنصر علوى يتضمن استعداد الإنسان لتحقيق معالى الأمور ، وأقدس الصفات .. وهو فى الإنسان حقيقة لا ترى بالعين ، ولا تلمس باليد ، ولا تحاز فى مكان .. فهى كالقكرة فى ذهن المفكر وكالخطرة فى صدر اللهم ، وكالثقة فى نفس المؤمن ، ولا سبيل للنس إلى إدراك كنهه . مع أنه كل شىء فى وجود صاحبه ، فهو — أى الروح الذى يؤهله للارتقاء فوق مستوى الحيوان ، ويقرر له أهدافه وغاياته العليا فى الحياة ، ويرسم له خطوط مناهجه ، ويضيف إلى بشريته النزوع إلى مصدر القيم والمعارف التى تجعله حقيقة إنسان .

إن الإنسان — على مايدل التأمل فى شأنه — قد فصل لإبداع حضارة مثلى أراد الله أن تقوم فى هذه الأرض ، فكان من تقديره تعالى أن يفتح فيه من روحه ، ليكون ذلك الروح معدن الخصب الذى تترعرع فيه مبادئه وفضائله .

• والحضارة ليست بناء حسيا لمصانع ومستشفيات ومدارس ، وجامعات وقصور ، وحصون ومؤسسات تجارية واقتصادية ونحوها ، إنما هى غاية عليا ، وقيم فاضلة فى الضمير تفرض على الإنسان أن يحققها فى ظاهر الحياة حصونا ومؤسسات وأوضاعا كريمة ، فتكون تلك الأوضاع هى التعبير عما فى الضمير ، وصورة لمقتضى غاية الإنسان وقيمه .. وشتان بين مدرسة يقتضى الإيمان ببناءها لتغذى الناشئ بثقافة الحس والروح ، فتهب له قوام إنسانيته ، وتمسك قبضته من زمام الطبيعة ليوصلها إلى تحقيق غايته العليا فى الحياة .. ومدرسة تنشأ لتعلمه كيف يشبع ما لله فى الحياة من رغبات الحس .. وشتان بين أوضاع ومؤسسات تقام لتأييد أحكام الحق والخير والعدل ، وأخرى لتأييد أنانية الفرد والأمة ، وتقوية بأس الدولة فيما تبغى من اغتصاب وفساد فى الأرض ... وذلك بإيجاز مفهوم الحضارة ، فهى حس ، (٣٢ - آدم)

وروح... والروح هو مبادئ الحق وقيمه التي يتضمنها حظ المرء من معرفة الله... وأما
الحس فهو الإمكانيات التي يحصلها من الطبيعة لتكون عدته في تحقيق مقاصده .
٢ — ذلك تقرير نظري قد يخفى على كثيرين ، ولا يسلمه الحسيون الذين لا يرون
في الإنسان أى عنصر علوى . فتبيننا لهذا التقرير وإبرازا لآثار هذا العنصر نوردد
بعض تجارب نلقاها في حياتنا على مختلف بيئاتنا ومستوياتنا الاقتصادية والثقافية ،
وهي تجارب لا يمكن حملها على منطق حسي ، ولا تفسير لها إلا صدورها عن
حقيقة روحية في كيان الإنسان ؛ فن ذلك :

(أ) لجوء عامة الناس إلى الله عند حلول الشدائد والمخاوف . . نقول عامة
الناس لأن الخاصة منهم — وهم ذوو الفطر القويمة والبصائر المميزه — لا تغيب
عنهم صلواتهم بالله لحظة ، بل لا تغيب عنهم حاجتهم إليه سبحانه في شدة أو رخاء ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — يدعو الله بقوله : اللهم لا تسكنني الى نفسي
حرفة عين ، ولا ما هو الأقصر من ذلك « أما العامة — فقراء وأغنياء .. سوقة وذو
سلطان فجهدهم يقصر عن مدى ذوى البصائر ، إذ تتركهم مشاغل الدنيا واهتمامات
العيش ، والافتتان بمظاهر الجاه ، وأسباب الترف واللذة ، فيستأثر ذلك بإرادتهم ،
ومهمهم ، ويندو هو الحاضر في أذهانهم وضمائرهم ، وتغيب عنهم صلواتهم بالله ، ولا يبقى
في وعيهم سلطان أو منطق يعول عليه إلا سلطان المادة ومنطق المحسوسات... حتى إذا نزل
بأحدهم مالا قبل له به من خطر يهدد حياته ، أو حل ما يخشاه على نفسه أو على أحد
من أهله ، حينئذ يقين بفطرته أو غريزته الروحية أن سلطان المادة أو إمكانيات الحس
لا شأن لها بته بنجدة أو مدافعة . . لقد انقشع عن البصيرة وهم التعويل على أحكام
الحس وقا عليه أسبابه ، فبدأ للبصيرة عيانا ألا سلطان في الكون إلا سلطان الله الآخذ
بناصية كل شيء في الأرض والسماء ، فيتجه إليه سائلا النجاة تضرعا وخفية :
يارب : يارب . وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم بمثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ

الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ
بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ ، وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذَا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١) ﴿

وقد ينجو ركاب السفينة أو يغرقون ، ولكن شاهدنا يبدو في تحولهم من
حسبان الحس المغشى لاذهانهم وضماؤهم ، إلى التثبث بسلطان غير مرئي ... ومن
البديهي أن تلك حال لا يمكن أن يزدع فيها المرء نفسه ، فإذا رأياه يسقط من
حسابه كل ما كان يعتد به من أحكام الحس ، ويتجه إلى سلطان غير منظور يهتف به
«ويستغيثه» ، فليس له من تأويل إلا أن حاسة باطنة لسكان روحى باطن أبصرت
من وراء المادة مالا تبصر حواس الظاهر ومداركه المحدودة ..

وذلك — لا محالة أثر العنصر الروحي الذي تقررده للإنسان

(ب) ومنها الإحساس بحسن الحس وقبح القبح ..

• وليس المراد الحسن والقبح الحسنيين ، على ما نرى — مثلا — في حسن
الناظر والصور أو قبحها .. إنما المراد حسن الصفات العامة وقبحها وما يصدر عنها
من قول وفعل ..

والمعروف أن حسن الحس وقبحه يدرك بحاسة النظر العادية .. ومعيار
الحكم بقبحه أو حسنه يختلف بحسب عرف الناس في بثاتهم وعصورهم المختلفة ،
فقد يكون النموذج البشري جبلا في بيئة أو عصر ما ، وقبيحا في بيئة أخرى ، أو
عصر آخر !

أما حسن الصفات وقبحها ، فلا يدرك بالحواس الظاهرة ، بل يدرك بحواس

الاقتصادية ، وتغضب إذا تعرضت تلك القيم للبغى والغبن .. وهذا أمر طبيعي .
مسلم لا جدال فيه على ما نرى بيننا .. فلو كان كل أمر الإنسان أنه كائن طاعم
كأس وحسب ، لارتبط غضبه ورضاه بمنطق أنانية حسنة فقط ، ولما كان له أى
غضب أو رضا بما عدا ذلك .. وانفرض أن القضاء — مثلاً — يصدد قضية
هامة يعرف الجمهور وجه الحق فيها ، ويتابع مراحل نظرها لما يلابسها من
اعتبارات عامة ، ولما تتعرض له في الظلام من تيارات وتأثيرات استعمارية
طاغية .. فإذا صدر الحكم فيها على غير ما يتوقع الناس من العدل أحسست في
نفسك — مثل ما يحس غيرك — غضباً وامتعاضاً ، وربما صدرت منك كلمة أو
إشارة تعبر عما افعلت به من ثورة وضيق ... فإذا كان الموضوع لا يتصل
بمحيطك الخاص — محيط الأقارب والأصدقاء ، أو محيط المصالح الخاصة — فإنه
لا معنى لغضبك ولغضب غيرك إلا أن تمت قوانين في الضمير تلبس حقائق
المعنويات ، كالأعدل وغيره ، فلا تفعل إلا بما ينال قيمها من خيانة أو عبث ...
وإذ تبين أن تلك القوانين ليست من حساب داعي الاقتصاد في الإنسان ، فهي
بالضرورة منطق العنصر العلوئ الذي نقرره ، وقد فطر الله عليه الناس كافة ،
ولا سيول بإزاء منطق تلك الظواهر إلا التسليم بالخاصية الروحية التي تحل في المرء
فتجعل له استعداداً لأن يحوز أشرف القيم ، ويحقق أكرم المثل والغايات ...
وبما يجب التنبيه إليه أن الروح ليس خلية أو غدة تفرز إفرازها بمجرد استقرارها
في ضمير الإنسان ، إنما هي أمر علوى يتيح للإنسان أن يبدع ثماراً ليست من ثمار
هذه الأرض ، إذا هو شغل نفسه بآيات الله في الكون أو ما تتضمن من معاني
صفاته عز وجل ، فإن تلك المعاني وحدها هي التي تتفاعل مع الروح وينشأ من
تفاعلها ما شاء الله من ثمر .

وهذا الذي قررنا يصل بنا إلى أن الله سبحانه حين يذكر في القرآن الكريم

أنه ينزل الماء على الأرض الميعة فيحييها ، وتنبت من كل زوج بهيج ، لا يريد إرشادنا إلى دقائق قدرته وحكمته فقط ، ولا إيراد البرهان على إمكان البعث فحسب ، إنما يريد إلى جانب ذلك تنبيه المؤمن إلى وجوب إحياء خصائص الروح فيه بمطالعة آمار صفات الخالق في الخلق ، ومنه قوله جل ثناؤه :

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ ، وَلَا يَسْكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ، اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ^(١)) .

والمؤمن المخاطب بقصة آدم عليه السلام يرى في - ضوء ما قدمنا - أنه مطالب بالانبعاث إلى فضائل الحق ... يرى أن عليه أن يحيي نفسه ، وأن يستنبت في بشرته كيانا من صفات الحق وفضائل الخير ، فن هدى إلى ذلك وأعين عليه فهو البشر الحى ، ولا معنى للحياة التى ينوء بها القرآن إلا هذا . . أما من استغنى وأصم أذنيه ومر كبهيمة الأنعام فهو لليت ، وإن سجلته دقاتر الإحصاء فى عالم الأحياء . . وليس لموت النفوس معنى إلا هذا حين يرد فى مثل قوله تعالى :

﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِمَخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢) ﴾

ولقد هدى الصحابة رضى الله عنهم إلى إحياء قلوبهم واستنبات ما شاء الله من الفضائل فى أرض بشريتهم ، وكان مددهم فى ذلك كتاب الله وسنن رسوله ، وما فى آيات الكون من سر الحياة . . ولقد وصف الله ذلك منهم ، وضرب المثل له فى التوراة والإنجيل : ﴿ كَزَّرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ .

تقديم

لا نريد بالتكوين هنا تركيب جسم الإنسان وتصويره من لحم ودم وعظام وجوارح وتقاسيم ، ولكننا نغنى الخطوط الجامعة التي فطر الله عليها هذا الكائن الممتاز في صفات خلقه ومشاعره وإدراكه وعقله المعجز الخطير . . . نغنى ذلك التقويم الروحي المادى الذى سوى عليه الإنسان ، فكان كما أخبر الله سبحانه فى قسمه . . . ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ﴾ .. أو بعبارة أقرب إلى فهمنا الحاضر ، نريد معنى «التصميم» الذى يذكر فى لغة المهندسين عندنا ويراد به الخطوط التى يقام عليها بناء بيت أو مصنع أو نحوهما ليؤدى الغرض منه على أحسن حال .

ولقد كان الإنسان فى علم الله القديم - قبل أن يخلق - معنى جامعاً للأوصاف التى يتألف منها كيانه المادى والروحي ، أو كان «تصميماً» - والله المثل الأعلى - ينتظر الوقت الذى يظهره الله فيه إلى حيز الجس والمثال .

ولقد خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ؛ فإذا هو بشر إنسان ، سوى بمثل الأوصاف التى سبقت له فى علمه سبحانه .

ولقد قلنا فى الباب السابق : إن طبيعة الإنسان إذا أمدته بشيء فإنما أمدته بخصائص الصلصال والحما المستون ، أما صفات القوة والخير والنور فلا ، إذ هى فى ذلك كالأرض الميتة . . . فإذا روى على الإنسان أثر من هذه الصفات فهو من خصائص السر الذى نفخه الله فيه من روحه

فلا إنسان بإزاء الحق والخير ناحيتان : إحداهما سلبية ميتة ، وهى طبيعة الطين ...

السمع إلا سمع القلب وحده ، ولا ترى الحياة إلا حياة هذا الكائن المعنوى ، وبدونها فلا سمع للمرء ولا حياة ولا استجابة لما حوله من معالم الحق : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ فَرَّغُوا إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

* * *

بين العقل الطبيعي والعقل الروحي :

وللإنسان منطق قائم على ما بينه وبين هذا الكون المادى من علاقات حسية ومشاهدات وتجارب ، أو قل إن للإنسان قوة مدركة فيها سر التجاوب والتوافق مع الأشياء الماثلة لحواسنا فى هذا الكون ، فنحن نرى شخوصها ، ونسمع أصواتها ، ونشم روائحها ، ونذوق طعومها ، ونميز ملمسها ، وتقوم تلك القوة المدركة تبعاً لتوالى الزمن ومرور التجارب — بإدراك خواص تلك للمسموعات والمرئيات والمشمومات والمطعمات والملموسات ، وعلاقة بعضها ببعض ، وعلى أساس ذلك كله تقوم بتقسيمه أجناساً — جمادا ، وحيوانا . ونباتا — وتقسيم الأجناس أنواعا ، فينقسم الجماد — مثلاً — إلى صلب ، وسائل ، وغاز .. وهلم جرا .. وخلال ذلك يتبين من قوانين الطبيعة ، وخواص الأشياء الكيموية وحقائقها الرياضية والهندسية ما تقوم به المدارس والجامعات الآن فى بلاد الدنيا .

أقول للإنسان قوة مدركة يقع إدراكها على أشياء هذا الكون المادى ، وله مع ذلك خاصية عناية أخرى تنظر إلى الطبيعة نفسها لا من حيث أنواعها وخواصها وألوانها ، إنما من حيث أنها .. صنع الله تعالى ، وهذا الصنع يدل بما فيه من آيات الإتيان وإحكام النظام وعجائب الخلق وقصد الإحسان والإتمام على ما للصانع تعالى من صفات القدرة والعلم والحكمة والكرم والود والرحمة إلى ماله من صفات ..

وحصيلة هذا التأمل والاستبصار تنزل في ضمير الإنسان فتلتقي بالروح «العلوى فيه» ، فإذا به يتلقاها تالقي الأرض الطيبة لواردات الغيث المبارك ، فتمطر ما شاء الله من مبادئ وقيم وصفات . . . أى تنشأ بذلك للإنسان حياة باطنة ، فى مقابل حياة بدنه ، غير أن حياة البدن تقوم بزاد من الحس تحياها أعضاء فانية ، أما تلك الحياة فإن زادها من معرفة الله عز وجل . ولا يدركها فناء . .

وقيام تلك الحياة فى ضمير الإنسان يقترن - ولا بد - بوجودان قوى أصيل جامع ، يحب قيم الحق والخير ويراهما بهجة نفسه ، ويكره الباطل والشر وكل ما يمت إليهما بصلة على ما فى قوله تعالى : «وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ» (١) . .

وقد قلنا إن هذا الوجدان يقترن بتلك الحياة الباطنة - ولا بد - فلا توجد بدونها إطلاقاً ، ولا يوجد هو بدونها ، فهما متلازمان ، ولك أن تقول إنهما شئ واحد . ولهذا نجد صاحب هذه لا يطبق أن يستعلن الباطل ، ولا أن تنتهك لاحق حرمة ، وهذا الوجدان بالنسبة لتلك الحياة الباطنة هو عقلها الروحى .

ولهذه الحياة الروحية قيمها . كما أن للحياة الحسية قيمها من عرض الدنيا وزينتها . وجاهاها . . . قيمها : الحق . والرحمة . والطمأنينة . والعزة ، والعدل ، والود ، والأمن . والصبر والنصر ، والخير ، والغنى ، والسكينة ، والبر والفوز والعلو ، والربح والبركة . والحياة ، والإيمان ، والهدى والمعروف . . إن هذه القيم التى ذكرنا والتي لم نذكر ، هى قيم معنوية بجته ، أخذنا أسماءها كما وردت فى القرآن الكريم . ولها فى حياة عظماء الرجال وصلحى التاريخ أثرها الواقعى المسلم . . .

والذى يهمننا من تقرير ذلك هو صلاته « بالعقل الروحى » :

(١) فى العقل « خاصية روحية » لا تبصر من الكائنات جرما ولا لونا .. ولا طولا ولا عرضا ، إنما تبصر ما لله فيها من عبر الصنع وعجائبه . فيستخلص الإنسان بتلك حصيلة من معرفة الله عز وجل .. فالخاصية بهذا ليست من قبيل ملكات الإدراك الحسى ، فهى روحية .. وحصيلتها ليست من مقررات العلم الطبيعى ، إذ هى من خالص العلم بالله .. والميدان الذى حصلت منه تلك محصولها من العلم ليس هو المادة ، إنما هو « دلالة المادة على الخالق عز وجل .. وهذه « الدلالة » أفق روحى امتاز الإنسان من دون الحيوان بأن له فيه جولات وصولات .

(ب) وقد قلنا إن حصيلة المعرفة تنشأ بها فى ضمير الإنسان « حياة روحية » .. وهذه الحياة ذات وجدان قوى لا ينفك عنها بحال : يحب الإيمان . ويكره الكفر وهذا الوجدان بالنسبة لتلك الحياة هو عقلها .. إذ به يعرف الإنسان غايته العليا التى يجب أن تتعاقبها همته . وأن تتعقد بها جهوده . فلا يرى باطلا إلا جرد نفسه لمجاهدته . ولا يرى حقاً إلا جرد نفسه لدعمه وتأييده .. وبه يدرك أن حقيقة الثروة هى حظه من معرفة الله ، وأن كل الدنيا إلى جنب ذلك قليل .. وأن الخير هو أن يؤتى الإنسان حظه من معرفة الله . وأن الشر هو أن يحرم تلك المعرفة .. وأن الغنى والفقر ، والعزة والدلة ، والنصر والخذلان ، إنما ترجع كلها إلى جوهر تلك الحقيقة : « مدى حظ المرء من معرفة الله » ..

وإذا كان الإدراك الحسى هو الحاكم على تقدير قيم الحس وتنظيمها . فإن هذا العقل الروحى الوجدانى هو الحاكم على تلك القيم العليا . فهو مناط الحياة الطيبة وهتن تبعاتها وتكالييفها .. وليس بقتضينا المقام أكثر من ذلك ، فلنذكر أن الخاصية الروحية فى العقل شأنها شأن الرائد الذى يرتاد أفق الدلالات ليستخلص ويستنزل منه ما شاء الله من العبر والمعرفة .. وأن تلك المعارف إذ تلتقى بروح الله

فى الإنسان ينشأ عنها الحياة ذات العقل الوجدانى على ما قدما .. ولنذكر أخيراً أن الإنسان إذا فرط فى معرفة الله انطفأ فى ضميره وجدان هذا العقل الروحى ، فلا قيم ولا مبادئ ، ولكن صيحات المعدة ، ونداء الشهوة ، وشتان بين من يتولى قيادته رشد مبادئه ، ومن يتولاه منطق أهوائه .

بين العلم الطبيعى ، والعلم الروحى .

هذا ، والعقل الطبيعى يكسب علمه وأحكامه عن طريق الحواس المتصلة بعالم الطبيعة . ولولا تلك الحواس لظلت خزائنه خالية من المعارف والتجارب .. أما العقل الروحى فقد عرف أنه يبدأ كسب معارفه العلوية بالتفكير فى أفق الدلالات بواسطة الخاصية العقلية التى قدمنا .. وبذلك يبدولنا لون من الموازنة بين كلا العلمين .

فالعالم الطبيعى الذى يضع مقرراته بين يديك لتعمل منه وتصنع ما شئت ، دون أن يحدد لك الغرض الذى ينبغى أن يستعمل فيه الذى لا ينبغى ، فإن صنعت به خيراً لا يحمذك ، وإن صنعت به شراً لا يزعرك . هو يعلمك : كيف تصنع ! ولا يعلمك لماذا تصنع ؟ .. هو علم آلة كما قلنا ، وليس علم قيم ومبادئ وصفات وغايات .. أما العلم الروحى فليس بحاجة إلى بيان خصائصه ، إذ هى واضحة فى كل ما قدمنا .. ذلك والعلم الطبيعى منطقى يمتد خال من العاطفة ، لأن أحكامه ، قائمة على ملاحظة ظواهر الماديات البحتة .. أما العلم الآخر — فأحكامه قائمة على تبين وجوه العجب والحكمة فى آيات الخلق ، وهى ملاحظة يتزج فيها المنطق بانفعال الوجدان بروعة ما يرى .. فقيه من المنطق تمييزه بين الحق والباطل .. والخير والشر .. والحلال والحرام .. وفيه من الوجدان حبه للحق والغيرة على حرمة ، وبفضه للباطل والنزوع إلى عناوته ، فإذا خلا العلم الروحى من خاصية الوجدان ، فهو علم زائف تنقصه الروح . ويفقد حوافز الإيجاب والعمل ، كعلم جمهرة المثقفين الذين يقولون ما لا يفعلون ، وليس ذلك فى حسابنا ، بل إنه لا يعتبر علماً على الإطلاق .

ولما كان العلم الطبيعي علم إمكانات وطاقات رهيبة ، فإنه إذا كان في وصاية العالم الروحي كان في وصاية الحكمة والقيم الراشدة ، فلا يستعمل إلا في غايات الحق ، ومقاصد الخير ، أما إذا كان في وصاية الأهواء والشهوات ، فليس ، إلا الجحيم الذي لا تنتهى كوارثه عند حد دون الإبادة .

بين المجال الحسى ، والمجال الروحي :

وإذا كان لكل إنسان وجودان : وجود حسى ، ووجود روحى ، فله — على هذا — مجالان يسعى فيهما بمواهبه : مجال حسى يسعى فيه بجوارحه ، ومواهب عقله الطبيعي ؛ هو عالم الطبيعة .. ومجال روحى ، يسعى فيه بمواهب عقله الروحى .. هو أفق ما وراء الطبيعة : أفق الدلالة الروحية على صفات الخالق سبحانه .

ولقد تكلمنا بعض الشيء عن وجودنا الروحى وماله من مواهب وملكات ، وعن وجودنا المادى وماله من مواهب وملكات ؛ وتبين أنه لا سبيل إلى إدراك الوجود الأول بالحواس العادية كما يدرك الوجود الآخر ، فذلك غير هذا .. وكذلك شأننا إذا رحنا نقابل بين المجال الذى يسعى فيه الوجود المادى ، والمجال الذى يسعى فيه الوجود الروحى .

فالمجال الأول مقيس بأقيسة الزمان والمكان ، مضبوط بالشواهد التى تحصى آفاقه . وتميز معالمة ، والسعى فيه مقدور بخطوات الأرجل ، وحركات الأيدي ، وما ينطق اللسان من كلمة .

أما المجال الآخر فليس له ضوابط من زمان أو مكان ؛ فالصدق الذى كنا نتكلم عنه — مثلا — لا يسوغ فى الذهن أن نقسمه إلى أربع وعشرين ساعة ، ولا إلى ليل ونهار ولا إلى شروق وغروب ، ولا أن نقول : إن فلانا قطع اليوم ثلاثة فراسخ من الصدق ، وقلنا قطع أربعة . وكذلك عالمنا هذا الروحى لا زمان فيه ولا مكان ، ولا يصح تصور هيئة له أو شارة من شارات أفقنا هذا الحسى بحال .

« والسعى فيه مقدور بإشراق الرغبة إلى الله ، تومض في القلب لا بحركة يحدتها
اللسان أو القدم أو اليد : « وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب » »

ولا أحسب إنساناً غير ملحد إلا وقد جرب هذه الإشراق التي يلتفت فيها
القلب بإخلاص إلى الله ، في لحظة من لحظات الصفاء ، يعلن بها إلى مولاه من
غير صوت ولا حرف — أنه محتاج إلى فضله ، مفتقر إلى رحمته .. تلك الإشراق التي
تحدث بالقلب فإذا هو هين لين منكسر لله ، ليست زماناً ولا مكاناً ولا حركة ،
إنما هي سر خفي يمثل طرفاً من سعى الإنسان في مجاهه الروحي .

سر ليس له إشراق المصابيح ، وإن كان نور حقيقته أبهر من وضوح
الشمس .. وليس له خطوط يقطع به المسافات ، وإن كان يطوى ما بين الأرض
والسماء في أقل من لمح البصر .. وليس له بيان مسموع وإن كان له حنين حول عرش
الله يفاخر الله به الملائكة .. وليس له يد يسخر بها ما يريد ، وإن كان
يقبض على سنن الله فإذا هي أطوع له من البنان ، وأقرب إليه بالإجابة من كل ما
تحتويه اليد . ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (١)

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا
دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (٢)

بهذا السر يسعى الإنسان في السماء ، أو فيما وراء الطبيعة لتحصيل ماله عند
الله من رزق ..

أرزاقنا بين المجال الحسى والروحي

وإذا كان لكل منا وجودان : روحي ، وحسى فلا بد لكل منهما من رزق
يناسبه يقوم به شأنه ، للحسى زاد الحس وللروحي زاده الروحي .

ومن البديهي أن زاد الوجود الحسى هو ما قدر الله تعالى لنا من أفوات هذه الأرض .. أما الوجود الروحى فزاده ورزقه هو معرفة الله عز وجل — على ما قدمنا والله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَعُدُّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ ^(١) ومن هذه الأزواق ما يقبل الله به على المؤمنين من الولاية والتأييد ، على ما يقول تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ ^(٢) ومن أهم تلك الأزواق زاد التقوى على ما يقول تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٣)

والله سبحانه يرزقنا فى عالمنا هذا الحسى وفق سنن من الأسباب والمسببات ، والمقدمات والنتائج ، ووفق قوانين من طبيعة التربة والجو والماء .. الخ ، فالمعادن تتكون فى الأرض وفق قوانين معلومة وموازين دقيقة ، ولا تتكون كيفما اتفق .. وشجرة التفاح والبرتقال — مثلا — لا تنتج كل منهما ثمرها جزافا ، إنما يتم ذلك وفق قانون محكم يستصفى لشجرة التفاح من عناصر الأرض الغذائية قيما مختلفة ، ونسبا مقدرة بميزان دقيق من كل عنصر ، ويستصفى لشجرة البرتقال قيما أخرى ونسبا تخالف النسب التى تخيرها للتفاح ، ولا تملك شجرة التفاح أو شجرة البرتقال أن تمتص من كل عنصر غير النسبة المقدرة لتكوين ثمرتها ، فتخرج شجرة التفاح تفاحا بحساب وميزان ، وتخرج شجرة البرتقال برتقالا بحساب وميزان ، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ وَالْأَرْضُ مَسَدَدًا نَّهَا وَالْقَيْْنَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّسْزُونٍ ﴾ ^(٤) هذا شأنه سبحانه حين يرزقنا من عالمنا هذا الحسى ، أما شأنه حين يرزقه

(٢) البقرة : ١٩٧

(٣) الكهف : ٤٤

(١) الحجر : ٨٧ ، ٨٨

(٤) الحجر : ١٩

من الأفق الأعلى فغير هذا .. شأنه هناك أن يخلق بلا سبب ، ويبدع بلا مقدمات .
إذ هو سبحانه سبب كل شيء ، وإرادته هي علة الخلق والأمر على نحو ما بين .
سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١)

فإذا كان لأحدنا سعي في هذا الأفق الأعلى حصل له من الأرزاق مالا
دخل لقانون الأسباب والمسببات ، ولا منطق الأرقام والحساب في تسميره وضبطه ،
وإليه الإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

واقدر كان الله سبحانه يرزق مريم ابنة عمران فاكهة الشتاء في الصيف
وفاكهة الصيف في الشتاء ، فسألها زكريا عليه السلام : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنْتِ لَكِ هَذَا ؟ ﴾
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣) .

هذا حين يرزقنا الله من هذا الأفق الأعلى — رزقاً «حسياً» أما حين يرزقنا
سبحانه منه رزقاً روحياً ، فشأنه هو .. إذ هي مواهب لا تقاس بمقياس ، ولا توزن
بميزان ، ولا تحصى بعدد ، ولا تتألف من ذرات ، ولا يسمو إليها وصف الواصف .
هي أرزاق عظيمة الشأن لو سورم العارفون على لحمة منها بملء الأرض ذهباً
لرفضوا أن يبيعوا الغنم بالخسران ، والجدّة بالحرمات ، والعلو بالضعفة ، ومجد الخلود
بالوكس البائر ... هي الإيمان بالله ، والاهتداء بهديه ، والمعرفة بقدره ، والخشية
لمقامه والحب لذاته ... وهي النصر على العدو ، والتأييد في مواقف المعارضة ،
والسكينة في مواطن الروع ، والجنود التي لا تراها العيون ولا يعلمها إلا الله ..
وهي الفرقان الذي يفرق به بين الحق والباطل ، والرشد الذي تدرك به حقائق
الأشياء .. وهي الصبر ، والثبات والثقة ، والطمأنينة ، والشجاعة والصدق ،

والوفاء ، والأمانة ، والكرم ، والسماحة ، والمواساة ، والإيثار وكل ما عرف من فضائل تنضّر وجه الحياة .

هى ما شئت من حياة الأبد ، ونعيم غير محصور بأمّد ، ومطالب جلت عن الأسباب لقيامها بدون سبب .

فلك إن شئت : علم بغير معلم
وأنس بغير أهل
وعز بغير عشيرة
وجاه بغير منصب
وقوة بغير جند
وسلطان بغير دولة
وغنى بغير مال
وزينة بغير رياش
وشبع بغير طعام
ورى بغير شراب

وكان رسول الله ﷺ يقول : «انى لست كهيمئة احدكم ، انى اظل عند ربى يطعمنى ويسقبنى » ذلك بعض ما يقال لما لنا عند الله من رزق معنوى ، وهو الرزق الحق الذى لا يقارن به ولا يذكر إلى جانبه رزق آخر ، إذ النعمة به لا يقدر قدرها ، ولا يحصى مداها ، ففى بعض مواطن الكتاب العزيز يذكر الله سبحانه رزق الأرض إلى رزق السماء حين يريد أن يفتح آفاق المحجوبين إلى ما ينزل عليهم من السماء من مطر ، ولكنه سبحانه حين أراد أن يبين أن الرزق الحق فى السماء لا فى الأرض قال : ﴿ وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تَوَعَّدُونَ ﴾

وأقسم لهم على ذلك فقال: ﴿فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا
أَنْتُمْ تُنَظِّفُونَ﴾^(١)

مفاتيح السماء:

لقد خبا الله لنا هذه الأرزاق فيما وراء المادة ، وجعلها في الأفق الأعلى - أفق
العنصرية الإلهة - لمن يريد من عباده ، ولا قيمة لهذه الحياة الدنيا إذا لم تنزل إليها
تلك الأرزاق من مستواها الرفيع ، ... ولا أنكد لعيش المرء ، ولا أبخس لقدره
من أن يعيش في محيطه المجلد محبوبا بمرضه الأدنى عما فوقه من رزق حق ،
ونضل واسع ، وخير عميم .

وإذ قدر الله سبحانه أن تكون لنا حياة في هذه الأرض استودعنا المفاتيح
التي تفتح بها خزائن تلك الآفاق العلاء ، حتى تكون الأرض كأنها سمء في نعيمها
وهذاها ، أو كأن السماء هبطت إلى الأرض لكثرة ما يقاض على المرء من نور
ورخاء وبهجة ... تلك المفاتيح هي تقوى الله سبحانه وتعالى !!
نعم هي تقوى الله ، ولا شيء غير تقوى الله .

والقد قدمنا أن هناك إشرافة في القلب تطوى للإنسان ما بين الأرض والسماء
ونجعل سنن الله أقرب إليه بالإجابة مما في يده ... تلك الإشرافة ضمها ما شئت ،
وقد سميناها سراً ، لأن أحوال القلوب المؤمنة سر من أمر الله ، لا يجمعه اللفظ ،
ولا يحيط به الوصف ، وقد سماها سبحانه في مقامنا هذا « تقوى » فلنكن عندما
سمى الله !

فتقوى الله لا يقتصر أثرها على تصحيح الأعمال ، وسلوك الصراط السوى ،
والنجاة من سوء العاقبة ، بل يمتد ذلك الأثر إلى استفتاح ما عند الله من أرزاق
طيبة مباركة ، وهو عز شأنه الذي يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا
لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾^(٢) ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ

الأرض من تروة ، فتقوى الله سبحانه إن هي إلا سبب يسعى به الإنسان في مجاله الروحي ، كما يسعى بسائر أسبابه الحسية في مجاله المادى فإذا أخذ بتقوى الله وترك الأسباب الحسية فهو جاهل معطل لوجوده الواقعى . . وإذا أخذ بالأسباب الحسية وترك تقوى الله فهو فاجر معطل لأسمى أسبابه وأقواها . . وسنة الله التى رسمها لعباده هي أن يبذلوا الطاقة الروحية والحسية جميعا ، إذ الروحية وحدها ليست بمغنية والحسية وحدها ليست بكافية ، وقد جاء القرآن الكريم بهما جميعا ، فقال سبحانه عن الطاقة الروحية : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ^(١) وقال عن الطاقة الحسية : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ^(٢) .

ذلك من حيث وجوب الأخذ بهما ونظر الشرع إليهما ، فاذا وازنت بينهما فى ضوء القرآن وما قصه من حقائق واقعية وجلت سرا عجبيا وفرقا كبيرا يتمثل فى أمور كثيرة ، نذكر منها ما يأتى :

الأولى : أن الأسباب الحسية وحدها ، يقتصر أثرها على المجال الحسى وحده ولا نصيب لذويها من ثمار المجال الروحي ، والله سبحانه يقول : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا . نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا ، وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ ^(٣) ، ذلك أنهم إنما يعملون فى أفق لا تخرج فيه الثروات إلا بسنن وقوانين مقدرة ، فمن عرف تلك القوانين وعالجها بما يطلق طاقتها ويضاعف جهدها كان له فيها بمثل ما بذل . . وعلى هذا تتفاوت حظوظ الأفراد والأمم منها — كثرة أو قلة — بتفاوت ما يعملون من تلك السنن وما يحسنون من ممارستها .

(٣) هود : ١٥

(٢) الأنفال : ٦٠

(١) التينين : ١٦

فإذا قلنا : إن الأسباب الحسية وحدها يقتصر أثرها على المجال الحسى وحده
فذلك ما نريد ، لكى نقابله بأن الأسباب الروحية يمتد أثرها إلى المجالين الحسى
والروحى جميعا ، فلا يقف أثر الأسباب الروحية — تقوى الله وحسن معرفته
والرغبة اليه تعالى — عند توفير الأرزاق الروحية التى أسلفنا ، إنما يمتد إلى الهيمنة
على « قوانين الطبيعة » نفسها ، فيسخرها على وفق مشيئة ذويه ، وقد قدمنا فى
تقرير ذلك آية الاستغفار . . . ويمتد أيضا إلى « أقوات الطبيعة » وثمارها ، فيهب لها
أمر أعجيبا لا ندرى له كنهها إلا أن الله سماء : « البركة » وقرره بمثل قوله : (قُلْ
أَتُنْكُمُ اللَّيْلَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ
لَهُ أُنْدَادًا ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا
وَبَارَكْ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ ثَلَاثِينَ) . .
فنحن أمام حقيقتين فى هذا النص الكريم : الحقيقة الأولى : « تقدير الأقوات »
وهو قانون معروف . . والحقيقة الثانية : « البركة » وهى حقيقة غيبية ليس لها
قوام مادى . قررنا القرآن ، وقرر آثارها ، وشهد المؤمنون فى كل جيل تلك الآثار
فى حياتهم .

ونحن نعلم أن الحقائق المعنوية يصعب تصورها لأننا اعتدنا ألا تتفاعل إلا مع
حقائق الحس ، ووقع فى أذهان الكثيرين أن ليس فى الكون من حقائق إلا
الحسّات . وهذا خطأ لسنا بإزاء مناقشته ، ويسكى أن نعلم أن المادة التى بين أيدينا
ليست سوى طاقة مقيدة أو محبوسة فى قوانين ، وأن وراء عالم القيود والحبوس أو
عالم القوانين المحسوبة عالما طلقا من كل ما للقيود والحبوس من عقد الأرقام
والمعادلات . . . وليس كل ملك الله هو تلك العناصر التى تتركب منها أجرام

هذا السكون ؛ ومن غرور الإنسان وجوده للحقيقة أن يجبر على المدارك الإنسانية الحسية والعلوية أن تقرر للسكون مفهومه الروحي اللانهاى واللم نفسه يقرر أن المادة المضغوطة فى قوانين الأرقام والمعادلات تتأثر بغيرها ، ولا تؤثر فى غيرها . . . على أن ذلك كله إنما يرجع إلى الله المحيط بكل شئ ، الآخذ بزمام كل شئ . . . ومن كرامتنا على أنفسنا أن نحيا فى حقائق الإيمان التى لا نفقد بها ذرة من حقائق العلم الطبيعي ، ونذوق بها خيرات مما عند الله : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ . . والبركة إحدى حقائق « العندية الإلهية » فإذا قلت إنها تضاعف حاصل الأرض من الثمر فهو حق . . وإذا قلت إنها تجمل الثمار نفسها بمباركة فلا تعطب ، ولا تسرع بالنفاد على كثرة المطالب فهو حق . . وإذا قلت إنها تجعلها مباركة الأثر فيما أنفقت فيه فهو حق . . ويبقى بعد ذلك أن من معانى البركة : القداسة ، والنمو ، والبقاء ، وهى حقائق يقصر العقل عن تبينها ، ولكنها بدون شك عوامل ذات أثر واقع مسلم فيما يكون للأفراد والأمم من قداسة الوجهة ، وعلو الشأن وبقاء المجد والأثر .

فإذا قلنا : إن العوامل الروحية تعمل فى المجال الروحي ، وتصل أيضا فى المجال الحسى فذلك ما نعنيه ، وهو — مع الأسف — أمر معطل بيننا الآن ، لعمول الناس على منطق الحس وتركهم الآخذ بأسباب ما عند الله .

والثانى من تلك الفروق ، أن الإنسان مع الآخذ بأسباب التقوى يكون قريبا من الله ، موصول السبب به سبحانه ، فيكون عونه جل شأنه متحققا له ، ويكون ما يملك هو من إمكانات حسية مجرد مظهر أو أداة لما يجرى الله من تأييد . . أما إذا كانت أسبابه إلى الله منقطعة ، وليس له من حول فى الحياة إلا ما يملك من أسباب مادية — كالمال والعدد والعدة — فهو معزول عن المصدر الحق للعون والتأييد ، ذلك أن مصدر الإيجاب فى السكون كله : حسه وروحه — هو الله ،

«أن الإمكانيات في يد الإنسان مجرد شكل، وليست من الإيجاب في شيء، بل إن الإنسان نفسه ليس سوى كتلة من المادة لا غناء لها، أى ليس مصدراً للروح العلوى الذى يأتى بالعجب ويقهر الصعاب، ويسترخس البذل والتضحية، ويرى الموت فى سبيل الله حقيقة الحياة، إنما هو - فى مجال الأسباب - سببى فى يد الله على ما يقول تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ فإذا كان موصول للقلب بالله، فهو موصول بالمصدر الحق للعون والتأييد والعطاء، وإلا فهو مبطل ساع فى هباء .

الثالث : أن تقوى الله تجبر التصور - لا التفسير - فى الأسباب الحسية ، فقد يحدث أن يقصر جهد أهل التقوى عن أن يكون لهم مثل ما لعدوهم من المال أو السلاح أو العدد لسبب خارج عن إرادتهم فتتولى التقوى بإذن الله الوفاء ، بما قصرت عنه طاقة المقل ، ووسع العاجز . ذلك أن السر الحقيقى ليس فى الأسباب - كما قدمنا - إنما هو من الله ، خالقها ومسرّها إن يشاء ، ومسر الله فى القليل هو مسره فى الكثير ، لا يزيد ولا ينقص ... فإذا رأى العبد مفرطاً فى جنب الله محقت بركة ماله .. أما إذا رأى ناهضاً بحقه سبحانه ساعياً فى أمره ، مقبلاً لصفة بذل الوسع والطاقة ، نهض سر الله فغطى ما قصر عنه الجهد ، وفعل بالأسباب القليلة ما يندحر دونه جهد الكثير . . . واقرأ - إن شئت - قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا تِسَارِيٍّ اثْنَيْنِ ، إِذْ هُمَا فِي الْقَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ أَمْ تَرَوْهَا ﴾ ^(١) فقد قصرت أسباب

العدد والعدة لديه عليه السلام يومئذ ، فلم يكن لديه من العدد إلا واحد ، « ثانی
اثنين » ولم يكن ذلك عن تقصير منه عليه السلام ، إنما هو حكم الظروف في منطق
تسلسل الأحداث ، ولذا جبر الله القصور فأعلى إرادة نبيه عليه إرادة أعدائه ، فأنفذ
هجرته (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا) .

بل قد يستنفذ أهل التقوى جهدهم الحسى فيما هم فيه من أمر الله ، فلا يبقى
لديهم من الأسباب المادية قليل ولا كثير ، فتنهض لهم تقواهم بما كانوا يرجون
أن تنهض به الأسباب ، بل بأكثر مما كان يدور بخلدكم من ذلك ، وهام أولاء
فتية الكهف كانوا يدعون إلى الله جهدهم ويرجون أن تقوم للتوحيد دولة في
ملكوتهم ، فلما ضيق عليهم الطغيان واضطهدهم ، وصب عليهم عذابه ، لم يجدوا
في أيديهم من إمكانات الدعوة إلا أن يعتزلوا قومهم ، ويخرجوا من المدينة إلى
كهف عقيد يارسون فيه ما تنبض به قلوبهم من شعائر توحيد الله عز وجل —
ويقص الله سبحانه هذا الجانب من نبشهم بقوله الذى يحكيه عنهم : (وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ
وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ — فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ
رَحْمَتِهِ) . . . ^(١) فهم يأوون إلى الكهف لالسى ينجوا بحياتهم ، ولا يجرزوا
أنفسهم من أذى عدوهم ، فالآية لا تقول هذا ، وإنما أووا إليه لأنهم حملة دعوة
لا يمثلها في البلاد سواهم ، والعمل لنشر رحمتها بين الناس واجب عليهم ، فإذا سلمهم
عدوهم إمكانات هذا العمل حسيا ، فهم يدركون سر الإيمان حينما لا يبقى في
وسع الإنسان سوى خفقة بالقلب ، فتنادوا : أن أووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم
ما تريدون من رحمة بين الناس . . .

وانظر إلى فقههم الجليل في الأسباب كيف رأوا أن الانطواء يشر لهم الانتشار

انطلقواؤهم في السكف حينما لم يجدوا سواه يثمر لهم انتشار ما يدعون اليه ، وقد صدقهم الله وعده ، فبارك لهم هذا العمل السلي - في نظرنا - وجعل له من البركة والثمر مالا نظن أنه خطر ببالهم ، فقد أمسك الله عليهم الحياة ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، ثم بعثهم من كهفهم ابروا الحال غير الحال ، والأمر غير الأمر ، فقد صار للتوحيد دولة قائمة ، وأمة مؤمنة ، وسلطان مبارك عتيد . . . ﴿ وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَنْهُمْ آيَاتِنَا أَنْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا . . . ﴾ (١) .

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلمنا تلك الحقيقة الدقيقة من أمر الله في قصة قصها عن رجل من بني إسرائيل استسلف ألف دينار من رجل آخر ، فقال له صاحب المال أئتني بشهيد ، فلم يجد الرجل شهيدا يشهد ، وقال لصاحبه : أما ترضى بالله شهيدا ؟ فقال : كفى بالله شهيدا ! فائتني بكفيل : فلم يجد الرجل من يكفله في الدين ؛ فقال : كفى بالله كفيل ! فقال صاحب المال : صدقت . . . وأعطاه المبلغ . . . وخرج الرجل إلى ما وراء البحار ، فلما حان أجل الوفاء بالدين أقبل على ساحل البحر يلتمس مركبا يرسل بها المال إلى صاحبه فلم يجد ، وطال بحثه وانتظاره على غير طائل ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها البحر ، ثم قال : اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلانا ألف دينار ، فسأني كفيلًا فقلت : كفى بالله كفيلًا ، فرضى بذلك ، وسأني شهيدًا فقلت : كفى بالله شهيدًا ، فرضى بذلك ، وإني قد جئتك أن أجد مركبا أبعث بها إليه بالذي أعطاني ، فلم أجد مركبا ، وإني استودعتكها ، فرمى بها في البحر . . . » فخرج صاحب المال حين

حل أجل الوفاء بالدين إلى ساحل البحر ينتظر قدوم المدين فلم يقدم ، واسكنه رأى خشبة قد طرحها الموج ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرها وجد المال والمحفظة التي كتبها له المدين يشرح فيها حاله . . . وبعد مدة عاد المدين من سفره ومضى إلى صاحبه ليدفع له الدين ، فقال له : إن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة ، فانصرف بمالك راشداً » (١) . . . !!

وشاهدنا في القصة أن بركة تقوى الله تولت عن الرجل المؤمن الصادق إعمال المال إلى صاحبه بعد أن ابتغى الأسباب المادية في كل وجه فلم يجد ، فرفع طرفه إلى السماء يعلن إلى الله نفاذ حيلته . وانقطاع سببه : فقال اللهم إنك قد علمت أني استلفت . . . وأنى قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني . فلم أجد مركباً . . . »

تلك شواهد جليظة من الكتاب والسنة تدل على أن تقوى الله سبحانه مفتاح عجيب وسر خفي : يفتح به الله للإنسان ما شاء من خزان ، ويهب له ما شاء من سلطان على ما يعلم ومالا يعلم من منن وجنود وقوى خفية في ملكوت السماء والأرض . حتى تستطيع أن تقرر وأنت آمن كل خطأ أو غلو — أنها السنة العليا التي ينفذ الله بها لأهلها ما يشاءون على هذا النحو العجيب . حتى ليحسبهم الرأى أنهم حكام دولة السماء يتحكمون في مقاديرها وسننها على ما يريدون ، كما يتحكم حكام دولة الأرض في مقاديرها وسننها على ما يريدون . ولكنه الله سبحانه تأذن للبشر — وقد خلقهم من طينة هذه الأرض ، وجسهم في حبوس مادتها المظلمة — أن يجعل لهم بتقواه سلطاناً ينفذون به من تلك الحبوس الضيقة إلى رحاب السماء ، ويكون لهم به في ملكوتها ما يشاءون . ما داموا صادقين .

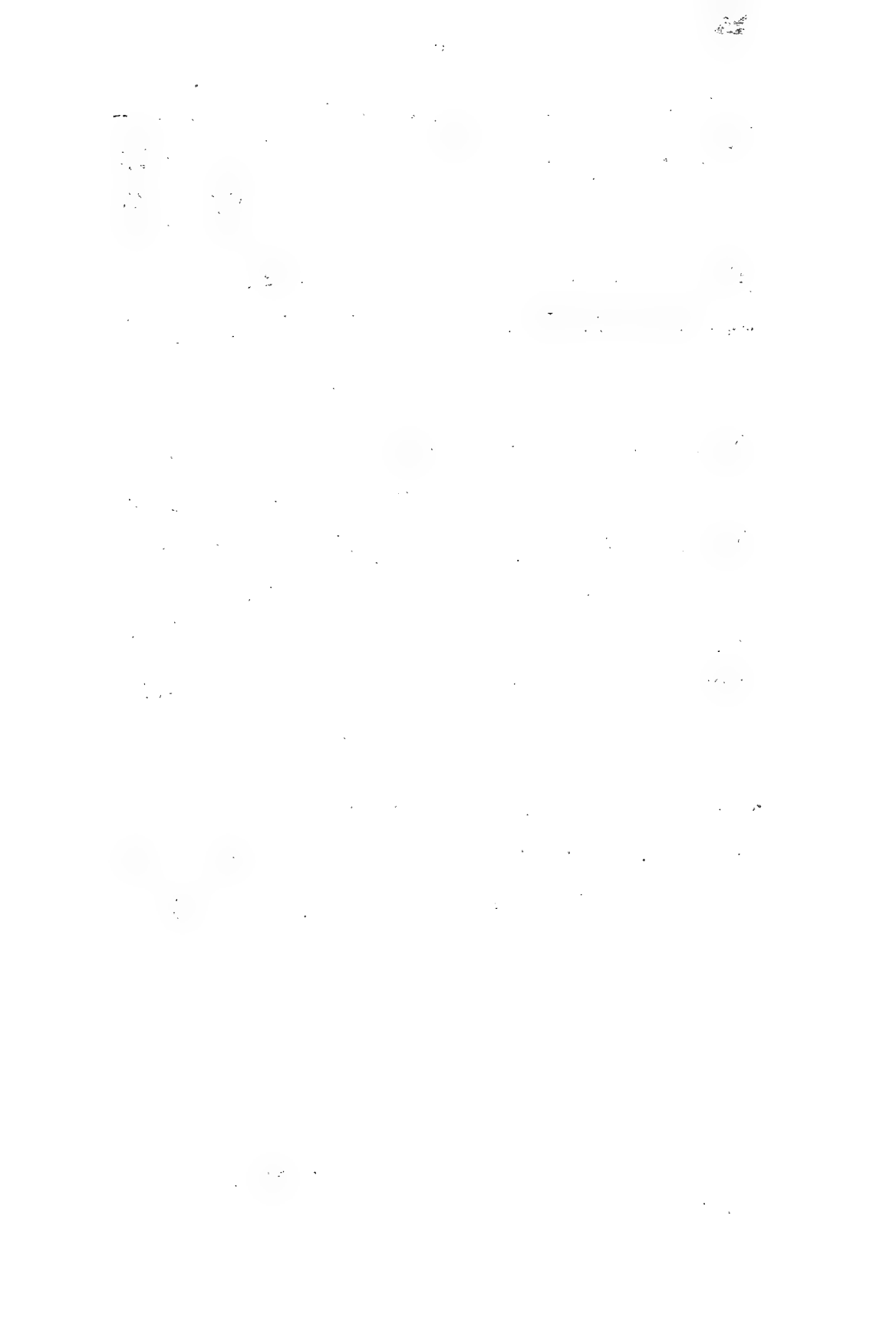
(١) روى ذلك الإمام أحمد بإسناد صحيح، ورواه البخاري في مواضع من طرق صحيحة معلقاً عليها بصيغة الجزم .

فى إبتناء وجهه على نحو ما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِى جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ . ذَلِكَ جَزَاءُ
الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) .

ذلك كله يكشف لنا عن ضالة أفق المادة إذا رحنا نوازن بينه وبين ما فى الأفق
الروحى من أسرار وأرزاق وآيات ، ويكشف لنا عن ضالة مداركنا العادية فى جهدها
وحصيلتها عما إذا رحنا نقارن بينها وبين ما لنا من مواهب روحية ...

ولسنا نتحدث فى هذا المقام عما يلحق الإنسان من خسارة حين يكفر بأفقه
الروحى ، ويحمل تعويله كله على أفقه المادى وحده . إنما بصدد إيراد طرف من
الحديث تبين به معالم أفق الروح فى الكيان البشرى ، وهو الأفق الذى أراد الله
سبحانه أن يعمره بالسر الذى نفخه فىنا ، وهو أعم آفاقنا شأننا وأجلها قدرا .. ونحسب
أن قد تبين مما تقدم معنى قولنا فى صدر هذه الكلمة : إن ذلك السر الروحى هو
الملكة الربانية أو الجهاز الإلهى - والله المثل الأعلى - الذى جهز به الإنسان
ليؤدى به حق ما أسند اليه ...

إن الله سبحانه يريد لهذه الأرض أن تحيا بالحق .. يريد لنا أن نقوم عنه
بذلك . فما لم يكن لنا من المواهب الروحية ما نستنزل به الحق ، وما نحمل به الحق ،
وما نؤدى به الحق ، وما نجاهد به فى سبيل الحق ، فكيف نقوم بما نريد ؟ ..



الباب الثالث

أفق الملائكة

أفق للملائكة

روى أحمد ومسلم — رضى الله عنهما — عن رسول الله ﷺ قوله :
« خلقت للملائكة من نور ؛ وخلق الجن من نار ، وخلق الانسان
مما وصف لكم » .

ذلك حديث صحيح لرسول الله ﷺ ، يذكر فيه الأصل الذى خلقت منه
الملائكة ، والأصل الذى خلق منه الجن ، والأصل الذى خلق منه الإنسان ...
وهو حديث جليل بعيد المرمى ، متعدد المعانى ، لا يريد به — عليه السلام — مجرد
الإخبار عن الأشياء التى خلقت منها الملائكة والجن والناس ، إنما يريد إلى
جانب ذلك الإشارة إلى ماوراءه ..

ولو كان — عليه السلام — يريد مجرد الإخبار والفائدة العلمية لاكتفى بذكر
النور الذى خلقت منه الملائكة دون حاجة إلى ذكر الأصول الآخرين ، فإن
القرآن الكريم تولى تقريرها تقريراً مؤكداً مكرراً فى غير موضع منه ..

فرسول الله ﷺ — إذاً — يريد شيئاً فوق الفائدة الإخبارية ، يريد أننا
لا نعيش فى هذا الكون الرهيب العميق وحدنا مع صنوف الطير والوحش والبهائم !
ويريد أن نقابل بين نوعين من الكائنات التى تحيا معنا فيه ، وتتصل بنا وتتصل
بها ، ويريد بهذه المقابلة أن نختار لأنفسنا بين ما أصله نور ، وما أصله نار ..

لابد لنا من أصدقاء مؤمنين فى هذا الكون الغامض ، فنأى النوعين
نختار ذلك الصديق المؤنس . والعشير الصالح ، والقرين النافع ؟! .. من الملائكة ،
أو الجن ؟! .. من النور أو النار ؟!

ومما هو جدير بالملاحظة أن رسول الله ﷺ — وهو يتحدث عن الأصول

التي خلقت منها هذه الأنواع — لم يذكر الأصل الذي خلق منه الإنسان ،
واكتفى بذكر الأصلين الآخرين فقط ، كأنه يريد أن يركز الأذهان في المقابلة
بين هذين الأصلين وحدهما ، ويحصر الانتباه في المقارنة بين النور الذي تألفه
الطباع والدار المحرقة ، ليختار الإنسان صديقه وقرينه على علم وبينة . . !

ومادام في الإنسان آفاق نفسية تدفع للانصال بالملائكة والجن ، فلينظر
المراءى قرين يحله من نفسه ، ويخطئه بكيانه من هذين النوعين : ملك أوجان ؟
نور أو نار ؟

معنى السجود لآدم :

وأول حلة للملائكة بنا في قصتنا السكرية أنهم أول من اتصل بأبي البشر
عليه السلام ، إذ سجدوا له بأمر الله عز وجل عندما نفخ فيه سبحانه من روحه .

ومن البديهي أن هذا السجود لم يكن سجود عبادة ونسك ، فإن ذلك
لا يكون لغير الله .. إنما هو سجود تحية وتكريم ومؤانسة ، . . وليس ضروريا أن
يكون سجوداً وضعوا له الجباه على الأرض كما تفعل في مسجودنا لله عز وجل ،
فلسجود هيئات كثيرة تتنوع بتنوع أصناف الخلائق ، والله سبحانه يقول في
ذلك : ﴿ وَالْجَبُّ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾^(١) ويقول على لسان يوسف لأبيه :
﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي
سَاجِدِينَ ﴾^(٢) . ويقول : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾^(٣) ومن البديهي أن
سجود الدواب ليس كسجود الملائكة ، وسجودهما ليس كسجود الشجر والزرع
الصغير ، وهكذا ... ذلك إلى أن من معاني السجود في اللغة النظام والنواضع ،
ويقول صاحب المصباح المنير : « وسجد البعير : خفض رأسه عند ركوبه ... وكل

(١) الرحمن : ٦٩

(٢) يوسف : ٤

(٣) النحل : ٤٩

شئ، ذل فقد سجد... » فإذا كان في سجود الملائكة معنى الذل ، فليس هو ذل العبودية ، ولا الذل المضيع للكرامة ، إنما هو ذل التطامن والمودة الذى نرى شيئاً معه فى قوله تعالى : ﴿ وَأَخْفَضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (١) . ونراه فيما يتبادله رحاء المؤمنين بينهم من انكسار الأخ لأخيه المؤمن الذى عبر عنه الحق تعالى بقوله : ﴿ أذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) . فهو سجود فيه معنى التحية والمودة ، وخفض الجناح ، والإقرار بالفضل ، قال القرطبي فى الجامع : « وقال قوم . لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ، ولكنه يبقى على أصل اللغة ، فهو من التذلل والانقياد : أى خضعوا لآدم ، وأقروا له بالفضل » (٣)

من خصائص النور

وهذا النور الذى خالقت منه الملائكة ليس كنور الشمس ، ولا القمر ولا المصابيح ، ولا كأي نور نعهده ، بل هو نور من أمر الله ، لاسبيل لعقو لنا وحواسنا إلى إدراكه أو تصوره ! . نور له من النور العادى خصائصه ومعناه ، وليس له هيئته وأطيافه ! ..

ومن غير المجدى أن نحاول الوصول إلى كنه الصورة أو الهيئة التى صيغ عليها الملائكة من هذا النور ، فذلك فوق طاقة عقولنا ، فضلاً عن كونه غير متعلق بأى نفع لنا فى المعاش أو المعاد . . . وحسبنا أن نعرف خصائصهم النورانية فقط ، فعليها تقوم صلتهم بنا وصلتنا بهم . وهى مصدر ما ينالنا منهم من خير فى الدنيا والآخرة ..

وتلك الخصائص إنما هى خصائص النور الذى صيغوا منه ، وقد قلنا إنه من أمر الله ، له من النور العادى خصائصه ومعناه ، وليس له هيئته وأطيافه ... فإذا

(١) الإسراء : ٢٤ (٢) المائدة : ٥٤ (٣) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي : ج ١ ص ٢٩٣

تكلمنا عن أوصافهم وخصوصياتهم فبلغ علمنا في ذلك هو ما للنور العادى من خصائص ومعان ، أما ما وراء ذلك فله عند الله ..

فمن خصائص هذا النور ، التواضع ، إذ يستوى لديه أن يهبط إلى أسفل ، أو يصعد إلى أعلى ، أو يذهب في أى اتجاه آخر .. وهى صفة تدركها إذا وازنت بينها وبين خصوصية النار التى تنزع إلى العلو والاستكبار ، والتناول بألسنتها في الجوى إلى أبعد علو ممكن . وسنعرض إن شاء الله في فصل قادم لخصائص النار التى خلقت منها الشياطين لئلا نرى أن استكبار الشيطان عن السجود لآدم إنما كان ذهابا مع خصوصية من خصوصيات طبيعه الموروث عنها .. فإذا ذكرت ذلك ووازنت بينه وبين تواضع النور أدركت أن سجود الملائكة لآدم عليه السلام إنما كان تعبيراً عن سجية من سجايا النور الذى فطهرهم الله سبحانه منه .

ومن خصائص النور ، المؤانسة ، إذ يذهب الوحشة ويث الطمانينة ، وهى خصوصية لا تحتاج إلى شرح وإبانه ، ويستطيع القارى أن يدرك أثرها في نفس آدم - عليه السلام - بالموازنة بين الشيطان إذ أبى واستكبر ، وهدد وتوعد ، وبين الملائكة إذ بذلوا له تحيتهم واقبلوا عليه بالمؤانسة والتواضع .

ومن خصائصه : الرحمة ، إذ يحلو الظلام ويكشف كربته .. وهى غير المؤانسة والتواضع - وإن كان الجميع يستقى من ورد واحد - فالظلام في ذاته ما يرح كربة ثقيلة ، سواء أكان ظلاماً حسياً أم معنوياً ... أما الظلام الحسى ، فكربته معروفة لمن جربوه في كثير من الحالات ، وأما الظلام المعنوى ، فشر أنواعه هو ما يرين على القلب من ظلمة الآثام ، وضباب الهوى والشهوة ، مما يحرم المرء ثمار النور الإلهى ، ويعرضه لشر العواقب وأفدح الضرر .

والإنسان ذنوبه وجہالاته التى تثقل كاهله ، وتنقص ظهره ، وتورثه ظلام القلب ، ودهق العيش ، .. وللملائكة بإزاء ذلك رحمتهم النورانية فيكربون للمائتال أهل الأرض من دهق وظلام وشقوة ، كأنما يحلون مايؤود هؤلاء من أوزار

فيضرون إلى الله جل شأنه أن يكشف عن عباده المؤمنين ما بهم من سوء ، ويحيط
عنهم ما ينقلهم من آصار.. يستوى في ذلك ملائكة الأرض وملائكة السماء ، وحلة
العرش ، وغير حلاته ، وما أجل ما تقرأ من ذلك في كتاب الله عز وجل :
﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ^(١) ... ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ
حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ
آمَنُوا : رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا
وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ
عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَّحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ،
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ
قَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ^(٢)

ومن خصائص النور أنه حارس حفيظ ، إذا حل حلت معه الحراسة والحفظ ،
وإذا زال تعرض الإنسان لأنواع المخاطر والأذى :

ذلك قول يقال في النور العادي ، وفي النور الملكي ، .. أما صدقه في النور
العادي فواضح غير محتاج إلى بيان ، وأما صدقه في النور الملكي فإننا في ظلمات هذه الأرض
معرضون لكثير من ضروب الأذى والمهلك ، منها ما كشفه الله لنا فتوليها
مدافعتة عن أنفسنا ، ومنها ما حجبته عنا وتفرّد سبحانه بعلمه ، وتولى حفظنا منه ، واختار
لهذا الحفظ جندا من ملائكته ، وأخبر جل شأنه عن ذلك فقال : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ مُّبِينٍ
يَدَّيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يُحَفِّظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) أي ملائكة من أمر الله يحرسونه
ويتعاقبون على حفظه ، قال الإمام ابن كثير : (أي لأبعد ملائكة يتعاقبون عليه :

حرس بالليل وحرس بالنهار ، وأربعة بالليل : حافظان وكتبان كما جاء في الحديث الصحيح . « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار ؛ ويجمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ؛ فيصعد إليهم الذين بانوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون اتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون (١) » وقد لفت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنظارنا إلى ما يجب علينا هؤلاء الرقة الكرام من حسن الصحبة وكرم الأدب فقال : « ان معكم من لا يفارقكم الا عند الحلاء وعند الجماع ؛ فاستحيوهم واكرمهم » .

على أن هؤلاء الحفظة الكرام لا يقف برهم بك في الحراسة عند حد معين بل يذهبون فيها إلى أبعد مدى متصور يرجون عنده أن يحفظوك من بأس الله سبحانه وتعالى ، قال الإمام الزمخشري في تفسير آية العقبات السابقة : « يحفظونه من بأس الله ونعمته إذا أذن ، بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب (٢) » . ونحن بهذا الاسترسال إنما نحاول أن نمهد الذهن لمعرفة شيء عن أفق الملائكة وعلاقته بنا وعلاقتنا به . .

نريد أن نقر في الأذهان أن كيان الإنسان قدر في الأزل ، أو صمم على أن يكون له نوافذ تطل على أفق الملائكة ، فوهب له الله سبحانه من الأسرار والملكات الروحية ما يقوم له مقام النوافذ ، فبها يطل على هذا الأفق ، وبها يتصل بمن فيه ، ويأنس ويتلقى .

نريد أن يلتفت الإنسان إلى مواهبه ، وأن يعرف قدر نفسه ، وأن يفتح نوافذه كلها ، وآفاقه كلها ليطل منها على هذا الوجود كله ، وليخلص إليه من كل أفق أريجه ، ونسيمه ، وضوؤه ، ودفؤه ، وكل مقومات الصحة والحياة ، فإن القصر المغلق الأبواب والنوافذ إن هو إلا مقبرة ، خير منها السكون المتفتح لنعم الحياة ...

(٢) تفسير السكشاف للزمخشري ٢ ص ١٣٠ .

(١) تفسير ابن كثير : ٢ ص ٣

نريد أن يعرف الإنسان أن تلك المادية التي ضربت على ذنعه وروحه إن هي إلا المغاليق التي أغقت نوافذه وأبوابه ، وعطلت مواهبه ومالكاته ، فلا يطل على الوجود إلا من خلال ثقب ضيق لا يكاد يرى شيئاً منه ولا يكاد يخلص إليه شيء من خيراته وهباته ...

نريد أن يعرف أن الله إذا أخبره في قصة آدم أنه اختاره لمقام الخلافة ، جعل له في آفاق السكون الخفي أعواناً من النور ، وأصدقاء من الملائكة ، يبدلون له الود ، ويسعون له في البر ، ويحفظونه من السوء ، ويمنحونه كل عون ممكن على أداء ما أسند إليه

نريد أن يعرف هؤلاء الأصدقاء الكرام البررة ، ليتصل بهم ، ويأنس بودهم ، ويتلقى ما يريدون إلقائه له من خير وتأيد .

ويطول بنا القول إذا مضينا نحصى خصائص الملائكة ، وعلاقتها بنا ، ومالنا فيها من حظ جزيل ، فنكتفي — بعد ما تقدم — بخصوصيتين لهما أوفق الصلة بالخلافة التي أسفدت إلينا .

أما الأولى فهي أن النور ما يرح سلاحاً من أسلحة الرجل المستقيم وعوناً له على أعدائه الذين يريدون به الشر ، ويسعون فساداً في الأرض . ولا شيء أثبت لجفانه بإزارهم من النور ، ولا شيء أخذل لهم وأوهن أعزهم منه ... بهذا قضت سنة الله في النور الحسى والنور المعنوى ، ولأمر ما جعل الله من الملائكة وهم من نور — عوناً لأهل الحق على ما هم بصدد من مجاهدة أعدائه ، فهم نور يستطيع على السرار الباطنة ، فيفزع منه أهل الباطل ويوجلون ، ويأنس له أهل الحق ويثبتون ، وإلى هذا المعنى يشير قوله سبحانه : (إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَجَبَّوْا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأَلْتَنِي

(٦٢ — آدم)

فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ ، فَضَرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ . وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ^(١) » . . . وفي الكتاب العزيز نصوص أخر تلم بهذا المعنى وتتوفر عليه ، ولسنا نجتزئ بما تقدم .

وأما الثانية فهي أن من خصائص النور الهداية إلى الخير والنفع .. ولا شك أن أنضل الخير ، وأنفع النفع هو المكوف على الحق ، والاستمسك به ، واتباعه في كل لحظة .. فإذا التمت تلك الخصوصية في شأن الملائكة ، ونهجهم الذي أخذوا أنفسهم به ، أغناك في ذلك ما وصفهم به الحق تبارك وتعالى من أنهم : (عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ^(٢)) ، (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ^(٣)) ، (لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ^(٤)) .

ذلك هو أثر تلك الخصوصية فيما اهتموا إليه من الحق ، أما أثرها في هداية الناس ، وهومله أمر مباشر في الخلافة التي أسندت إليهم ، فيبدو من أن الله سبحانه آثرهم بحمل الوحي الخاص إلى رساله وأنبيائه لهداية الناس به . ولا يحمل النور إلا رسل من النور ، والله سبحانه أعلم حيث يحمل رسالته .

ذلك هو شأن الملائكة في حمل الوحي الخاص بالرسل والأنبياء .. ولهم شأن آخر عام ، يتولون فيه هداية البشر كافة ، هداية فردية ، إذ يحوم الملك على قلب المرء ليلقي فيه ما يشاء من النور . وتلك دقيقة من أمر الملائكة لا نستقل بذكرها

(٣) التحريم — ٦

(٢) الانبياء : ٢٦ ، ٢٧

(١) الاقوال — ١٢

(٤) الانبياء : ١٩ ، ٢٠

« فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقررها ويحلو أمرها بقوله الذى رواه .
الترمذى وغيره من قوله : « فى القلب لمتان ، لمة من الملك : ابعاد بالخير وتصديق
بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله . ولة من
العدو — الشيطان — : ابعاد بالشر وتكذيب بالحق ؛ فمن وجد ذلك
فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ
يَعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ
وَقَضَاءً ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ١١ ﴾ ... »

ومعنى أن للملك لمة فى القلب ، أنه يلم به وينزل بساحته ، قال ابن الأثير فى
النهاية : « اللمة الهمة والخطرة تقع فى القلب ... أراد إلام الملك أو الشيطان به
والقرب منه ، فما كان من خطرات الخير فهو من الملك . وما كان من خطرات الشر
فهو من الشيطان »

ولا شك أن الملك إذ يحوم حول القلب ويسطع عليه بنور الخير . وبلقى
فيه ما يشاء منه . إنما يمضى فى ذلك مع سجية النور فيه . وخصوصية الهداية
التي أشرنا إليها .

وبعد ، فذلك لحة عما يقال فى أفق الملائكة ، ومالهم بنا من صلة وما بيننا
وبينهم من علاقة ...

ولا شك أن الإنسان يسره أن يكون له فى هذا الكون أصدقاء أخفاء
من هذا الطراز القد . يبذلون له الود ، ويحبون له الخير ، ويفدون ويروحون عليه
بالحراسة ، والنصيحة ، والتأييد ، والقاء حوافز الحق فى نفسه ... ويسره فوق ذلك
أن يرى فضل الله سبحانه واحتضانه به ، وعنايته بأمره ، إذ رصد له فى عالم الخفاء
تلك الأسرار التي تحنو عليه هذا الخنو ، وتبره هذا البر ، وتحفه بكل تلك الهبات
والنفحات ... إنه فضل يشرح الصدر ، وينير القلب ، وتعظم به المنة ، وينشئ فى

(١) قال الترمذى فى جامعة : هذا حديث صحيح

الشعور طاقات من الفرح يتضاعف بها حق الشكر له سبحانه والثناء عليه جل شأنه.

لكن ذلك الأثر الجميل الذي نجده في نفوسنا حين نقرأ ما جاء به الإسلام عن أفق الملائكة ليس هو موضوع بحثنا ، إنما موضوعه هو تلك الملائكة التي جعلتنا أهلاً للاتصال بالملائكة ، واتصال الملائكة بنا : نتجواب بها وإياهم ، ويتجاوبون وإيانا ، وهي الملائكة التي جعلت في كيان الإنسان أفقا خاصاً ، أو جانباً من الإدراك العلوى نمتاز به — فيما نمتاز — مما على هذه الأرض من أنواع الحيوان ، وصنوف الطير والوحش .

إننا في هذا الباب نبسط أمامنا خريطة تكوين الإنسان ، وأخر خريطة «تصميمه» ونستعين بالقصة الكريمة على تقرير ما في هذه الخريطة من آفاق ؛ وهذا الأفق الخاص بالملائكة هو أحدها ، وهو هدف هذا الفصل ومحوره الذي يدور عليه ، ولعلنا نكون قد قدمنا فيه ما يبين الغرض الذي أردنا .

الباب الرابع

أفق الشياطين



أفق الشياطين

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُونٍ ، وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ^(١)﴾ .

كلمة عن الجن :

الجن كائنات تساكننا هذه الأرض ، خلقهم الله سبحانه من مارج من نار ، ومنهم إبليس ، اقله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ^(٢) .

وهم إذا ساكنونا هذا الكوكب يروننا دون أن نراهم ؛ فلهم مداركهم التي يروننا بها دون أن يكون لنا مدارك نراهم بها : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ ^(٣) .

ويتناسلون ويتكاثرون : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ ^(٤) .
وهم مكلنون مثلنا ، إذا أخبر الله سبحانه أنه ما خلقهم إلا لعبادته : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، ومأمورون أن يؤمنوا بكتب الله ورسله : ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا !! فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى

(٣) الأعراف : ٢٧

(٢) الكهف : ٥٠

(١) الحجر : ٢٦ ، ٢٧

(٤) الكهف : ٥٠

الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ .. (١) الْخ » .

وفيه من يؤمن بربه ، ومنهم من غلبت عليه شقوته كإبليس ، فهو من الضالين : ﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَنَزَدُنَا ذَٰلِكَ كُتُبًا طَرَائِقَ قِدَادًا ﴾ (٢) ..
﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَمِنَ الْقَاسِطِينَ ﴾ (٣) .

وفي إمكانهم أن يتصرفوا في مادة هذه الأرض بسلطان من الله : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتَايَكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ أَقْوَىٰ أَمِينٌ ﴾ (٤) ، ﴿ يَتَمَنَّوْنَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَنَمَائِيلَ وَجَفَنٍ كَأَنجَابٍ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ (٥) .

وفي استطاعة الإنسان — بإذن الله — أن يسخرهم هذا التسخير ، ويتخذهم جندا له إذا بلغ ما يرشحه لذلك من صفاء النفس وقوة الروح ، وإيثار الله له ، كما كان سليمان عليه السلام ، إذ حشر له جنوده من الجن والإنس : ﴿ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٥) .

وإذا كان ذلك التسخير خصوصية لا تنبغي لأحد بعد سليمان عليه السلام ، فإن سر تلك الخصوصية لم ينقطع بعده ، فقد روى الشيخان رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع على صلاتي فامكنني الله منه

(١) الأحقاف : ٢٩ — ٣١ (٢) الجن : ١١ ، ١٤ (٣) النمل : ٢٩

(٤) سبأ : ١٣ (٥) سبأ : ١٢

فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم
فذكرت دعوة أخى ساميان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُسْكًا لَا يَنْبَغِي
لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ فردته خاسئا

وم يرهبون أهل الجد في الله المنة لدى العزائم على ذكره في كل حال ، فلا
يعرضون لأحد منهم بطريق .

ومأله أوثق الصلة بموضوعنا أنه ما من آدمي إلا له قرين من شياطين الجن
يلزمه حيث كان ، وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن ، قالوا : وأياك يا رسول
الله ؟ قال واياي ، الا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني الا بخير »

وفي قوله عليه السلام : « إلا أن الله أعانني عليه » ما يدل على أن ملازمة
القرين لا يقصد بها إلا البغى على الإنسان ، وإلحاق الأذى به ... وفي قوله : « فلا
يأمرني إلا بخير » ما يدل على أن إلقاء الشر والوسوسة به هي الضرر الذي يريد
عدو الله إلحاقه بنا ، إلا أن همة الرسول صلى الله عليه وسلم لوت زمامه وأخذت
بحلأ قيمه حتى أزلته على أحكامها القدسية فأسلم ، فلم يكن منه إلا الخير ...

* * *

من خصائص الشيطان

تلك كلمة عن الجـ أردنا بها التمهيد والاستئناس لما نحن بصدد من الكلام
عن أفق الشياطين ، ومأله من صلة بأفان الإنسان المتعددة ، فإنه الأفق الثالث من
الأفق الحبيطة به ، وله معها نهج من المعاملات . ولها أثر في المهمة المسندة إليه .

ولقد تكلمنا فيما مضى عن أفق الروح ، وأفق الملائكة ، ونحن في هذا
الفصل بإزاء آية كريمة من آيات قصة آدم تشير إلى أفق ثالث هو أفق الجن ،

وتنبه الأذهان إلى ما يقابله ويطل عليه من آفاق الإنسان ونوافذه . . . فإذا في هذه الآية ؟

لقد ذكر الله فيها نار السموم التي خلق منها الجان ، وقرنها بأخرى ذكر فيها الصلصال الذي خلق منه الإنسان . . . ولا شك أن هذا الاقتران ليس محض مصادفة ، ولا هو مجرد الإخبار وسرد الأحكام ، فإن الله سبحانه يذكر عقب هاتين الآيتين قصة آدم ، وما كان من استنكار إبليس وعصيانه ، وإعلانه حرب الإبادة الروحية على الإنسان ، حرباً تسخر فيها جرائم الإنم ، وجنود المعصية والإنحلال الخلقى ، وهى شر ما يهزم فيه الأفراد والشعوب من حروب ومعارك !

فهنالك — إذا — شأن أى شأن بيننا وبين هذا العدو المبين . فإذا قرن الله تعالى بين ذكر الأصل الذى خالقنا منه والأصل الذى خلق منه هذا العدو ، فهو اقتران يجاوز معنى السرد والإخبار الجرد إلى معنى من التحذير ، ينبه فيه الأذهان إلى ما يمكن فى أصل هذا العدو من خلائق السوء ، وخصائص الشر التى يهلك بها العباد . . . وهو تحذير ينقذ صوته وتطير شرارته من خلال المقارنة بين خصائص نار السموم المهلكة ، وخصائص الصلصال الضعيفة التى لا قبل لها بمكرمة

ولقد سبقت الإشارة — فى فصل سابق — إلى بعض خصائص الصلصال والحمأ المسنون . . . أما نار السموم التى خلق منها الشيطان فلم نجد فيما قال المفسرون عنها ما يشفى غلة من يريد المعرفة . . . فالسموم عندهم هى الريح الحارة بالنهار . . . وقيل بالليل . . . وقيل الحورور والسموم بالليل والنهار ، إلى آخر ما هنالك مما لا طائل وراءه .

والحق أن الجن كائنات لا تدركها الأبصار — كما تقدم — ولا تقع فى

مستوى حواسنا العادية : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ ﴾^(١) ... ومن التكلف الذى لا يقضى إلى شيء أن نحاول معرفة كنه النار التى خلقت منها تلك الكائنات ؛ فهى قطعاً ليست كالنار التى نعرف ، وليست كأي نار يمكن تصور هيئتها ، فذلك أمور سمعية يتوقف الإيمان بها على الخبر الصادق وحده الذى نزل به الوحي من عند الله . أو صرح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

والذى يهمننا من هذه النار ليس هو صورتها ، ولا العناصر التى تؤلفها ، بل خصائصها وأمرار صفاتها .. . ولقد أوردنا ، أن الرسول عليه السلام حين تكلم عن خلق الإنسان من تراب ، صرف أبصارنا عن هيئة الطين وصورته ، إلى ما تلمح مدارك الرموز من تقابل بين خصائص الطين وخصائص بشرية الإنسان ... فنحن على هذا لسنا بصدد البحث فى تركيب الصور والأشكال ، بل بصدد الصفات التى يمكن أن يستكن سرها وراء ذلك !

(١) الكبر

لقد قرر القرآن الكريم من هذه الصفات : الكبر ، وهو وصف يرى فى نزوع النار إلى الاستطالة والاستعلاء وإرادة الارتفاع ، وإذا لنقرأ فى القصة الكريمة أن الشيطان حضره ذلك الطبع حين أمر بالسجود لآدم فأبى أن يكون مع الساجدين فطرده الله من رحمته : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾^(٢) .

ولقد يدق على كثير من الناس معنى الكبر ، فيذهبون فى فهمه مذاهب شتى .

فأراحه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ محضه لنا ، وأعلن حقيقته سوية واضحة :
« **الكبير بطر** ، **وغمط الناس** » (١) .

وبطر الحق : رده وعدم الإذعان له .

وغمط الناس : ازدراؤهم وانقاص أقدارهم وحقوقهم .

فالكبير على هذا : هو الأناية الجاهلة ، التي تريد أن تكون إلهًا في الأرض
لا يخضع لحق ، وطاغية في الناس لا يريد أن يذهب أحدهم بكرامة أو خير ،
إذ يرى نفسه أولى بكل شيء .

وكلتا شعبتي الكبير بارزة في قصة امتناع إبليس من السجود لآدم :
﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّيَ إِلَّا أَنَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (٢) .

قد توجه أمر الله إليه بالسجود — وأمره سبحانه حق — ولكنه رد هذا
الحق ورفض الإذعان له ، معلنا فضله على آدم واحتقاره لشأنه : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ
خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ .

(ب) العجلة والغضب

ومن صفات النار التي يمكن إسنادها إلى الشيطان كذلك ، ما ذكره القرطبي
في تفسيره قال : قال الحكماء : « . . . ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة
والاضطراب » .

وهي صفات يمكن استنباطها بمجرد المشاهدة والمراس ، ويجمعها لك معنى
العجلة والغضب ، ويستأنس لها بما رواه أبو يعلى عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « **الثاني من الله ، والعجلة من الشيطان** » — قال الحافظ المنذرى : رواه

رواة الصحيح ، وبما رواه أحمد وأبو داود : أن الغضب من الشيطان ، وإن
الشيطان خلق من النار .

والثاني ليس معناه البطء والتأخير ، إنما هو النظرة
الفاحصة البعيدة التي تريك مقدمات كل العمل ، وأوائله وأواخره ، بحيث
لا تسرع بإفناء أمر من الأمور أو رده إلا بعد أن ترى ماله من عواقب ، لا مجرد
رؤية الصفحة التي يقبل بها عليك ، فما الأمور إلا عواقبها ، وما الأعمال إلا
خواتيمها ، فإذا بدت لك العاقبة وخبرت حقيقة البواطن فأفخذ ما تشاء ، أو دع ،
بحسب ما ترى من فائدة ، فرب أمر طابت أوائله وهو وخيم العاقبة . ورب أمر
لا تنشرح لبوادره وهو يتضمن الخير ، وهو سبحانه يقول : ﴿ وَعَسَى أَنْ
تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ
لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

أما العجلة فهي تصور النظر وسقوط المهمة عن التعلق بالغايات البعيدة
العالية ، اكتفاء بما يبدو من وجه الأمر وظاهره لأول وهلة .

ولعل المتأمل في قصة امتناع إبليس من السجود لآدم ، يرى أثر العجلة والغضب
في عصيانه أمر الله ، فإن طبع الكبر ما كاد يحضرد ويتحرك في نفسه حتى حضره
طبع الطيش والخفة ، فعجل إلى اتخاذ هذا الموقف من الله ، دون أن يحد في طبعه
مسكة من الحلم والروية ، وأعماه غضبه الذي سارع إليه عن أن يرى عاقبة أمره ،
وينظر فيما يحل به ، وهو الذي يعرف من قهر الله وبطشه ما يعرف .

— اختلف المفسرون في شأن إبليس عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا

لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ . فقال فريق منهم : إن إبليس كان من الملائكة ، بدليل أن الله وجه الأمر بالسجود إلى الملائكة ، ثم استثناءه منهم لما عصى أمر السجود . فأسلوب الاستثناء في الآية يدل على أنه كان من الملائكة ولما ردت عليهم آية سورة الكهف بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ ، قالوا : إن المراد بالجن قبيل من الملائكة يتناسلون ، ولهم ذرية ، لأن إبليس له ذرية . .

وهذا القول يعترضه أن الملائكة لا تجوز عليهم المعصية ، فقد قال الله فيهم : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ، فإبليس إذ عصى لم تكن له عصمة الملائكة ، فدلّت معصيته على أنه ليس منهم . . ذلك إلى أن الملائكة لا يتناسلون ولا ذرية لهم ، وقد سغه القرآن عقيدة الذين ﴿ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ . .

وذهب فريق إلى أنه من الجن لا من الملائكة مستندا إلى نص آية سورة الكهف : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ . إلخ ، ولكنه وجد أسلوب الاستثناء في آية الأمر بالسجود يرد عنه ، لأن الله استثناءه من الملائكة كما هو ظاهر الآية ، فهو — إذا — منهم ، لا من الجن فلجأ إلى تعليل هذا الاستثناء بأنه من الجن حقيقة ، ولكنه كان قد تربى بين الملائكة من صغره . فأخذ حكمهم حين أمروا بالسجود . وعلى هذا جاز الاستثناء

ونرى أن موضوع ترييته بين الملائكة وقصته التي قيلت فيه . من صنع الخيال ، إذ لم يرد شيء منه في كتاب ولا سنة ثابتة . .

والذى نراه فى شأن إبليس : أنه من الجن كما تدل عليه آية سورة الكهف :
﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ، وأن الأمر بالسجود
لم يصدر للملائكة وحدهم . بل كان ثم أمر من ذلك صدر لإبليس خاصة ، دل عليه
قوله تعالى فى سورة الأعراف : يا إبليس (مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟)
... وبما أن سورة الأعراف مكية فقد كان لدى المجتمع الإسلامى علم بذلك الأمر
الخاص بإبليس ، فلما نزلت آية البقرة بعد ذلك بالمدينة كان وجه النظم أن يقال
فيها : وإذ قال ربك للملائكة وإبليس اسجدوا لآدم ... الخ » ، ولكن الله
تعالى اقتصر فيها على ذكر الأمر الصادر للملائكة ، اكتفاء بسبق العلم بالأمر الصادر
لإبليس . ومن البلاغة حذف ما تدل عليه قرائن المقام . فكيف بما تدل عليه
نصوص القرآن الصريحة ؟ .. وأمثال ذلك المحذف فى القرآن كثير ..

شياطين الانس

ولقد قلنا إننا فى قصة التكوين بإزاء تقرير صفات مجردة . فالشيطان ليس
شرا على نفسه وعلى غيره إلا بهذه الصفات ، فحينما وجدنا هذه الصفات فى تراب أو نار ...
فى إنس أو جن ، فنحن بإزاء شيطان ... ولهذا أمرنا فى القرآن الكريم أن
نستعين من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى الصدور من الجنة والناس ،
بل لقد جاء القول صريحا فى القرآن الكريم بأن من البشر شياطين تعادى الحق
الذى جاءت الأنبياء به كما تعاديه شياطين الجن : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ
نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ
الْقَوْلِ غُرُورًا ^(١)) .

ولشياطين الإنس فى إضلال المجتمع رفنته وتزيين الشر له أساليب تختلف باختلاف مالكل منهم من ثقافة أو بيئة أو مهنة أو جنة . ولكنهم اتهدف كلها إلى غاية واحدة هى معاندة الحق وردء ومحاولة إطفاء نوره . وإن تخطىء فى هؤلاء الشياطين صفات الكبر والعجلة والضيق بدعاة الحق ، وإعلان الغضب عليهم والثورة بهم .

وإنك لتجد الكبر يذهب بالواحد من هؤلاء إلى حد الاشتمزاز من الله نفسه ، دون الاكتفاء برد الرسالة ، والإعراض عما جاءهم من الحق ، ولقد ابتليتنا فى مجتمعاتنا هذا بمن إذا حدثه عن الله رأى نفسه فوق ذلك ، وأنقض إليك رأسه ، فإذا حدثه عما قل فلان أو فلان من الفرنجة انبسط إليك وأقبلت أساريره نحوك بالبشر ، وذلك ديدنهم فى كل عصر ودأبهم الذى سجله الله سبحانه فى قوله :
(وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ،
وَإِذَا دُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ^(١)) .

فإذا نظرنا إلى طبع الإنانية الذى غلب على الشيطان فلأه بالحق على آدم ، ودفعه إلى أن يضمر له عداوة الأبد ، وجدنا أن هذا الطبع نفسه هو الذى يدفع شياطين الإنس إلى معاداة الرسل والأنبياء ، ودعاة الإصلاح فى كل عصر ، ذلك أنهم يدركون ما تهدف إليه الدعوة من تغيير أوضاع المجتمع ، وهى أوضاع حسنت بها حالهم ، واتسقت منافعهم ، وقام لهم بها جاه وسلطان ، فلا يتصور من أحدهم أن يستكين حتى يقضى عليه ، بل لابد من منزلتها بكل ما بملك من قوة ، ولا يتصور منه حينئذ أن يكون مستعدا للأخذ والعطاء ، والإصغاء لتبين وجه الحق فيما يقل . فإن العقدة لديهم ليست فى انقارهم إلى وضوح البرهان ونصاعة الحججة ، فلعل وضوح البرهان مما يزيد فزعهم ، وبضاعت طاقات المقاومة فى نفوسهم ،

بل المسألة بالنسبة إليهم مسألة حياة أو موت : حياة ترف وجاه ومنفعة ارتبطت بهذه الأوضاع ، أو موت تقلت به منهم أسباب السيطرة والمنفعة ...

فإذا ثاروا في وجه دعاة الإصلاح يكفونهم عن الكلام ، ويسلبونهم حرية الدعوة والبلاغ ، فهي سنة أمثالهم منذ كان في الأرض طائفة تنفع من الأوضاع الفاسدة : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنَ الْقِبْلَةِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ ، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾^(١) ؛ وإذا عمدوا إلى تشويه قصدهم واستعداد ذوى السلطان عليهم ، فهي كذلك سنة أمثالهم في كل عصر : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْنَا مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ ، قَالَ سَنَقْتُلُنَّ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، وَإِنَّا لَفَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾^(٢) ، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ دَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخِفُ أَنَّ يُدِيلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾^(٣) .

حرب صفات لصفات

وبعد ، فإننا لم نفرغ من كل خصائص الشيطان وطبيعة النار التي خلق منها ، فمن خصائص النار الإحراق ، والإهلاك . والإنلاف ... ولسنا بحاجة في تعرف ذلك إلى الاستئناس بأثر من الكتاب أو السنة ، فهو من خصائص كل نار نعرف ، غير أنه إحراق لا ينال أجسامنا ولا الظاهر من صورنا ومادياتنا ، بل هو مسلط على

(۱) ابراهيم : ۹

(٢) الأعراف : ١٢٧

(۲) غافر : ۲۶

حقيقة الإنسان ، وما أنشأه الإيمان في صدره من دواعي الخير وعزائم الرشد ،
وهي المعيار الذي تتقوم به درجته : « فان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ،
ولكن انما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » . (١)

فإذا أتى الشيطان على تلك القلوب والأعمال ، فقد أتى على حقيقة الإنسان ،
وأباد أنفس ما يملك : فجرد باطنه من كل خير ، ولم يترك له إلا صورة اللحم
والدم ، وهي لا تزن في ميزان الحق مثقال ذرة .

ولقد قررنا في غير موضع أن السر الذي نفخه الله في الإنسان هو الجانب
الحى فيه ، وهو الذى يمد طبيعته الترايبية السلبية ، بأسرار القوة والإيجاب . فإذا
بها قدرة على إظهار أكل الفضائل وأحسن الصفات ... هذا الغرس الطيب ،
وهذا النور فى الطينة الظلماء ، هو الهدف الذى يكيد له الشيطان ، وهو ما يهيج
فيه أعاصير الشر والحقد والغضب .

ولقد شبه القرآن الكريم ما يحدّثه الإيمان فى قلوب المؤمنين بأنه :
﴿ جَنَّةٌ بَرْبَوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْهُ أَكْثَرًا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ
لَمْ يُضِبْهَا وَابِلٌ قَطَلٌ ﴾ ... وعقب على ذكر تلك الجنة بما يفعل
الشيطان فى إتلافها فقال : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ
جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. ﴾ ، إلى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ
نَارٌ فَاتَّخَرَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

ولسنا الآن بصدد شرح تلك الحقائق النفيسة فى كتاب الله ، لأنها أدخل فى

جاء التطبيق العملي . ونحن في مقام التقرير النظري لخصائص الأشياء . ولعل هذا يؤنس إيمانك في هذا المقام أن نسوق لك ما جاء في صحيح البخاري متعلقا بهذا المعنى : « قال عمر رضي الله عنه يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : فيم ترون هذه الآية نزلت : « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل ... الآية » قالوا : الله أعلم . فغضب عمر وقال : قولوا نعم أو لا نعم ... فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء . يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل ، فقال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لعمل رجل عمل بطاعة الله . ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق عمله .. »

وإذا كان الشيطان يحرق ويدمر ما ينشئه الإيمان في قلب ابن آدم من مظاهر الحياة والعمران الروحي . فإن تلك الصفات البغيضة . « الكبر ، والعجلة ، والغضب » هي ألسنته النارية التي يحتمل لتسريبها إلى قلوب الناس . فأيا صفة منها استطاع أن يقذفها في روع أحد ، محقت ما فيه من خير ، وكان لها أثرها الاجتماعي السيئ فالجرب بين الشيطان والإنسان حرب صفات لصفات : وقد ذكر لنا الإسلام من ملامح صفات الشيطان ما يكفي لمعرفة النجاة منها .

* * *

المحور الاصيل لعمل الشيطان

قال الشيطان وهو يحاج ربه : ﴿ قِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَا يَتُوبُهُمْ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَ مِنْ خَلْفِهِمْ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ، وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ^(١) .

وقد ذهب المفسرون مذاهب في تأويل قوله : « من بين أيديهم » و « من خلفهم » و « عن أيمنهم » و « عن شمائلهم » ... وخالف بعضهم فيها بمضا . وكلها تعتمد على الرأى والاجتهاد في الفهم . ولكن لا شك في أنه قول يبين مدى ما سيبذل صاحبه من جهد في الاحتيال على فريسته . وأنه ان يدع في آدمى ثغرة إلا فذ إليه منها .

ومضى الشيطان يتم محاجته لربه . ويبين نهجه الذي سيتخذه إلى ما يريد ، فقال : « رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » (١)

ولقد قلنا إن ما بيننا وبين الشيطان إنما هو حرب صفات لصفات . لا يعبا فيها بارقة دم ، ولا تمزيق أشلاء ، إنما يعنيه محو صفات القوة والخير . وطمس معالم الفطرة التي تمدها صاحبها بذلك . فإذا نكبه فيها فقد أرداه . وأورده مولود الهلاك .

فهما أصلان خطيران ، منهما تحاك كل المكائد ، وعليهما تدار الخطط والمكر .

التزيين في الأرض ، والإغواء ...

* * *

الغنى :

والغنى في الإنسان حالة معنوية تعترى صفاء باطنه فتفسده . وذهب الغويون إلى ربطها أو موازتها بما يعترى باطن الفصيل من فساد التخمّة والبشم بكثرة الرضاع ، أو بما يعتريه من هزال وضمور اذا منع من الرضاع بسبب من الأسباب . . قال

القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : (قال ابن الأعرابي : غوى الرجل غيًّا إذا فسد عليه أمره ، أو فسد هو في نفسه وهو أحد معاني قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ أى فسد عيشه في الجنة ، ويقال : غوى الفصيل ، إذا لم يدِرَّ لبن أمه ^(١) .

وقال صاحب القاموس المحيط : « غوى الفصيل بشم من اللبن ، أو منع من الرضاع ، فهزل وكاد يهلك » .

والإنسان يعتريه الفساد أو النقي إذا انطمست معالم الفطرة في نفسه ، أو اقتطع مدد الروح الإلهي عنه . فتطفاً بصائرُه . وتفسد مواهبه الروحية الباطنة . وهو المراد بقوله : « لأغوينهم أجمعين » .

والغنى ضد الرشد والرشد رشدان :

أما أحدهما فعالة الإدراك التي يميز بها المرء ما يصلح معاشه وما يضره . وهو المعنى بقوله سبحانه في القاصرين من الأيتام : ﴿ فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ^(٢) ﴾ وهذا الرشد لا معول عليه إلا في تدبير المنافع المادية ، وهو درجة هينة من التمييز يباغها الصالح والطالح متى أدرك منها معينة في العادة ..

أما الرشد الآخر : فهو درجة رفيعة من إدراك البصيرة : يهتدى بها المرء إلى حقائق الوجود ^(٣) ويميز قيم المعنويات ، فلا يشبهه عليه حق بباطل ، ولا يلتبس عليه الزيف الرخيص باقيم النفيس ، وهو الذي ذهب موسى عليه السلام يطلبه من العبد الصالح : ﴿ هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ؟ ^(٤) ﴾

(٢) النساء : ٦

(٤) الكهف : ٦٦

(١) الجزء السابع ص ١٧٥

(٣) قدمنا في أفق الروح ما يعتد به بياناً لهذا المعنى

وأصحاب هذا الرشد يبدون في سائر الناس كالحاليق بين الأفزام ، وينظرون إلى سواهم كما ينظر الرجال إلى الأطفل وهم يعبتون ، وهؤلاء هم أوصياء الإنسانية التي لم تبلغ رشدها ، والقائمون على هدايتها بإذن الله إلى سواء السبيل :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۖ ﴾ (١)

وإنك لترى أثر ذلك الرشد في البحث عن الحق والاهتداء إليه في سيرة إبراهيم عليه السلام إذ قال الله فيه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۖ ﴾ (٢) . فإنه أدرك بتمييزه العالى أن هناك في هذا الكون حقا أكبر غير تلك الكائنات الأرضية ، وغير تلك الكائنات السماوية التي تسخرها النواميس ؛ فليس هو كوكبا آفلا ، ولا قرا زائلا ، ولا شمسا غاربة . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۖ ﴾ (٣)

فأدرك ما أدركه إبراهيم صلى الله عليه وسلم : هو سقوط قيمة المراتب ، وقصور كل شيء منها أن يكون ربا له .. فقد قرأ على هذه المراتب نفسها من آثار صفات الخالق سبحانه ما جعله يلتمس ربه في سواها .

وإدراك هذه الحقائق وتمييز قيمها هو مقتضى الرشد ، فمن أدركها كما يدرك أن الواحد نصف الاثنين فهو الراشد ، وإلا فهو القاصر ، وإن حمل من إجازات العلم وألقابه ما حمل .

وإنك لترى أثر هذا الرشد في ثبات إبراهيم عليه السلام إذ عرض على النار فتغير له رأى ، وإنه لثبات لم يتكاف له شجاعة ، فإن الحق الذي يقن من أجله ساطع في بديته سطوع الشمس ، فليس فيه شك لديه .

ذلك هو الرشد الذى يحرق كبد الشيطان ، ويجهد جبهه أن ينجة لنا عنه ،
ويطمس نوره فى بصائرنا . . . وعكسه النى . . . فإذا كنت قد أدركت الفرق بينهما
فقد أدركت الفرق بين النور والظلمة ، والحياة والموت ، والعقل والحمق ، وما
يريد لنا الله ، وما يريد لنا الشيطان !

يريد لنا الشيطان هذا النى الذى فقد به إدراكنا العالى ، وتمييزنا الرفيع ،
فلا نبصر فى الحياة إلا ما حولنا من شخوص المادة الزائلة ، ولا نميز إلا قيم بعضها
بالنسبة لبعض ، ولا نشغل إلا بتمييزها واستيلادها ، وتداولها ، وتلك هى النكسة
البائرة ، والصفقة الخاسرة ، التى لا يود الشيطان مواها !!

* * *

التزيين

أما التزيين فى الأرض ، فقد فسره ابن كثير : بأنه تزيين المعاصى ، وفصل
الزخمشرى ما أوجز ابن كثير ، فالأرض هى الدنيا : « لأزينها فى أعينهم ،
ولأحدثهم بأن الزينة فى الدنيا وحدها حتى يستحبوها على الآخرة ، ويطمثنوا
إليها دونها » .

وكل ذلك صحيح ويجمعه أنه يريد أن يزين كل زيف يعرض للمرء فى حياته ،
فإذا أقنعه بقبوله والتحول إليه فقد رده إلى التهلكة .

تزيين المتاع النافه

ومن التزيين ما يتم بإفساد الذوق العام للمرء . . . ونعنى بالذوق حالة الوجدان
التى تحدث بالقلب حين يميز قيمة من القيم ، أو يتجاوب مع لذة من اللذات . .
فقد يزهد فى الشيء أو يقبل عليه ، وقد يطرب له أو ينفبض عنه ، وقد يحبه
أو يكرهه ، ولكن بعد أن يذوقه ويزنه ويميزه . وأغلى ما يذوقه القلب أو
يقرح به : الإيمان بالله سبحانه ، فإذا زجد المرء حلاوة ذلك الإيمان وأحس زينته

في صدره فهو آية سلامة الذوق وصحته ، وإليه يتجه قوله سبحانه :
﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِّ إِيَّتِكُمْ إِلِيمَان ، وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَهُ
إِيَّتِكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضْلًا
مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۝ (١) ﴾

فإذا فسد الذوق بهذا التزين انطمس فيه تأثيره بالمعاني القيمة الجميلة ، وانحط
إلى اشتهاؤ أجنس القيم وأوكس العروض من أنعام وبنين ونحوهما ، وهذا بعض
ما يصيب المرء من نكسة بتزين الشيطان ، وقد ندد الله به ونعاه على أهله في
قوله سبحانه : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ
وَالْمَقَاتِلِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ
حُسْنُ الْمَاَبِ ، قُلْ أُمُؤْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ ، لِلَّذِينَ
اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۝ (٢) ﴾

تزيين الظاهر

ومن التزيين ما يتم بفساد تقدير المرء لقيم الرجال . وتمييزه لخصائص الناس .
بحيث تعدو مقاديرهم عنده مقيسة بمظاهرهم من الجاه أو المال أو الزينة . فمن يملك
من ذلك شيئاً فهو الجدير بالتقدمة والرفعة وإن انحط معدنه النفسي ، ومن لاحظ
له منه فلاميزان له ، وإن انطوى على أكبر قسط من عظمة النفس . وسمو الحقيقة ،
وقديما عجب أهل الطائف أن ينزل الله رسالته على رجل من غير أهل الثراء
والرياسة . فردوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا في تسويغ ذلك :
﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْآنِيِّينَ عَظِيمٍ ۝ ﴾

لظنهم أن التقدمة عند الله تجري على ما لو فهم في تقديم ذوى الثراء والرياسة . .
وهذا التقدير الخاطيء هو أمر التزيين الذى يرد الإنسان إلى مظاهر الصور
والأشكال بعيدا عن الجوهر الحق والقيم الأصيلة . فرب شخص يرجح أمة .
وهو لا يزن عند هؤلاء شيئا . ورب أف أو ألوف منهم لا يزنون في ميزان الله
إصبع واحد من يعيشون مع الحق ، وما أحكم ما أصاب القرآن هدنه إذ صور
تلك الحقيقة بقوله الحكيم : ﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ،
وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوَيْلٌ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
وَاللَّهُ يُرْزِقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(١) 》 .

وهذه حال لا يصلح عليها مجتمع . ولا تزدهر بها فضيلة ، ولذا كان لزما على
المصلحين وأصحاب الرسالات ألا يعبأوا بذلك الغناء . ولا يلتفتوا إلى شيء من
تلك الزينة . ولا يختاروا أنصار رسالتهم ودعائم إصلاحهم وجمتمعهم الذى
ينشدون إلا من ذوى القلوب ، الذين عرفوا الحق ، وأرادوه ، وعملوا له وأقبلوا
عليه . فأولئك هم خلائر المجتمع الحق الذين يضعون له تقاليد السليمة . وموازينة
السديدة . ويصرفونه عن القشور الغافية . وإلى هذا المقياس الحق والناموس الصادق
وجه الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ
الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ،
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا
تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرْطَا ^(٢) 》 .

تزيين الظنون والوهم

ومن التزيين ما يندفع به المرء عن علمه وعقله فيجربى ، وراء الظنون والأوهام

التي لا تستند إلى أساس، وحسب للمرء جهلا أن ينصرف عن العلم بالله، فما تنفعه فلسفته أو معارفه النبوية بعد ذلك شيئا، فإن العلم بالله هو العلم بالحق، وإذ فات الإنسان أن يجعل الحق أساس علمه فقل في جهله وضلاله ما شئت :

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، ذَلِكَ مَبْلُغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾^(١)

وحسب الواحد من هؤلاء أن يلقى اليه الوهم خاطرا من الخواطر في باب العقائد - مثلا - عن الله، أو الملائكة، أو النجوم، أو البقر أو غيرها، حتى يتلقفه ويجعل منه عقيدة يناضل دونها، ويحمي عليها، ويورثها من ورائه، وما اضطراب العقائد وإنكار وجود الله إلا ظنون فاسدة لا تستند إلى أقل سند من استدلال عقلى سليم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى، وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾^(٢)

والقرآن حافل بأنباء هذه العقائد الوهمية والرد على أصحابها ردا يستعدي العقل وحده في نقض أصولها. وبيان مكان الوهم منها: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَا، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ﴾^(٣)، ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ، مَا أَلَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾^(٤)

وفي عصرنا هذا تروج مذاهب اجتماعية فاسدة، لا تستند إلى فطرة سليمة أو سنة من سنن الله المقررة، فهي من قبيل ما يفعل في كل عصر شياطين الإنس والجن إذ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا بما يلقون من أوهام،

(٣) الزخرف : ١٩

(٢) الحج : ٨

(١) النجم : ٢٩ ، ٣٠

(٤) الزخرف : ٣٠

ويزينون من ظنون ، واسنأ بصدد بيان تلك المذاهب أو مناقشتها ، فلذلك مجال آخر

وميدان تزيين الظنون في الحياة اليومية أوضع ، ومن فضل الله سبحانه أنه لم يرض للمؤمنين من عباده أن يكون لهم حاجة في ذلك التيه المظلم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ^(١) ﴾

إذ كثيرا ما يرتب المرء على تلك الأوهام نتائج بعيدة الأثر ، فيحب أو يكره . ويقعد أو ينهض . وبعارض أو يؤيد ، ويحارب أو يسالم . تبعاً لما يلقى إليه الوهم من تفسير خاطيء لبعض الأمور . أو استجابة لظن تخيل معه أن سيحدث كذا وكذا من النتائج . وهذا أسوأ ما يزين الشيطان للإنسان . ويفسد به رأيه ... وقد نعى الله على قوم قعودهم عن نصره رسول الله صلى الله عليه وسلم استرسالاً مع وهم فاسد وتخيل سقيم : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ، وَزَيَّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا ، وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ^(٢) ﴾ .

تزوين العمل السيء

ومن تزوين الشيطان أن يلقى في صدور أهل المعاصي أنهم أفضل وأقوم من سواهم . وهذا باب يطول استقصاؤه . وما رأينا مدمناً أو مقامراً . أو مسرفاً على نفسه بمعصية ، أو لصاً كبيراً أو صغيراً إلا وقد زين له سوء عمله بضروب عجيبة من السوغات : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِّلْمُتَسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٣) ﴾

ومن التزوين ما يخيل فيه إلى الجبارين والطغاة من أهل الجاه والسلطان ، أنهم

(٣) يونس : ١٢

(٣) الفتح : ١٢

(١) الحجرات : ١٢

على الحق . وأن مناوئتهم من المستضعفين على الباطل ، وقديما قال فرعون لقومه :
﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ^(١) ﴾
﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ مُسَوِّءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ،
وَمَا كَانُوا فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ^(٢) ﴾

* * *

وبعد . فتلك بعض الميادين التي يغشاها الشيطان فيزين للإنسان ما يبيره
وبهاسكه ، ويفسد له ذوقه العام . فلا يظرب إلا لمتعة الحيوان ، ويفسد له
رأيه فتروج فيه الظنون والأوهام . ويفسد له تقديره لحقائق الرجال
فتروج لديه للظاهر ، وتضطرب القيم والعلاقات التي تمسك المجتمع .
ويزين له سوء عمله فيراه حسنا ، وذلك أسوأ ما يقضى به على إنسان :
﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ؟ الَّذِينَ ضَلَّ
سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ
مُضْمَعًا ^(٣) ﴾

أعاذنا الله من كيد الشيطان وتزيينه وهدانا سواء السبيل .

* * *

البَابُ الْخَامِسُ

أَفَقُ الْمَادَّةِ

أفق المادة

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ،
فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ . إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا :
سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴾ (١)

هل أتينا على كل ما أوردته القصة من خصائص آدم التي تكون منه إنساناً ،
وتجعله أهلاً لمعالجة شئون هذه الأرض ومزاولة مراسم الخلافة فيها ؟ لا ، وإنما
مازلنا بصدد استكمال ما بقى منها .

نعم لم نزل بصدد الطواف حول ذلك المعنى الكبير — الإنسان — لنعرف
ما يحيط به من آفاق ، ونعرف النوافذ المظلة منه على كل أفق ، وعلى ضوء ذلك
نعرف — بالتدريج — الخطوط الجامعة لشخصيته، خطا بعد خط ، وتبين الآفاق
الخطيرة التي سوى عليها كيانه المعجز الخطير .

ولقد عرضنا — في الفصول السابقة — ما قررتة القصة من مواهب الروح
التي نفخها الله فيه ، وهي مواهب وصفية محضة ، تتعاقب بالعنويات لا بالحسرات ،
ولا ترشحه وحدها لمزاولة أى غرض جليل في هذه الأرض ، وهذا الخليفة الممتاز
يجب أن يهبط إلى أرضه ، وهو مجهز بالملكات التي تمكنه من الهيمنة عليها ،
واستخراج ما في كنوزها من خير وثروة ...

أو يهبط إليها وهو يحمل معه بأمر الله مفاتيح كل شيء فيها ، وذلك هو
بعض مقتضيات الخلافة ، وأيسر شرائطها التي لا بد منها . .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ فالضمير في «عرضهم» يعود على الأسماء، وهو ضمير يختص بالعقلاء، ولا يجوز أن يعود على الأسماء إلا إذا كان مراداً بها مسمياتها لا مجموعة حروفها التي لا تعقل، قال الزمخشري: ثم عرضهم، أى عرض المسميات.. وإنما ذكر الضمير لأن في المسميات العقلاء. فأدّم عليه السلام إنما تعلم حقائق الأشياء، وسنن الله التي تحكمها وتنضبط خيرها وشرها، وتنظم نعمها وضرها.

وليس المراد بالتعليم أنه سبحانه أعطاه درسا في الكيمياء والطبيعة والفلك والطب ونحوها مما يضع في يده أزمة قوانين هذا الكون الأرضي، إنما المراد أنه بث فيه من أسرار الفهم والتمييز والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن ويميز خصائص الأشياء بعضها من بعض.

والتعليم هنا مسند إلى الله سبحانه، وحين نعود إلى معاني التعليم التي أسندها الله إلى ذاته مباشرة - أى بدون وساطة ملك أو بشر من الرسل - نراها كلها في القرآن الكريم دالة على ما وهب الله سبحانه من استعداد فطري الإدراك والفهم والإلهام والعروة.

وقد يكون هذا الاستعداد الفطري عاما شاملا لجميع أفراد النوع الإنساني كما في قوله سبحانه: «علم الإنسان ما لم يعلم» وقوله: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾، أى أودع فيه سر النطق والتعبير عما يحول في نفسه من المعاني. وقد يكون هذا الاستعداد هبة خاصة لفرد معين، أراد سبحانه أن يميزه به ويجعله خصوصية له...

ولقد كان يوسف عليه السلام ذا بصيرة ملهمة. وملكة مرنة في تأويل الأحلام، فلما فسر لصاحبيه في السجن ما رأى كل منهما من رؤيا قال: ﴿ ذَلِكُمَا عَمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾، أى بعض ما وهب لي من استعداد للعلم والفهم، وهو عليه

السلام إنما يرجع في ذلك إلى قول الله عنه: ﴿وَأَمَّا بَلَّغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا^(١)﴾ .. ومن البديهي أن ذلك لم يكن دروساً أُلقيت عليه ، إنما هو نور قذف في فطرته جعل له هذا الاستعداد الخاص الذي عبر عنه في أخريات حياته بقوله : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعِلْمَتِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾

وواضح أن التعليم في حالتيه العامة والخاصة ، مرادبه سر المواهب التي جُمِعَ بها المرء ليدرك أسرار ما يتصل به ، ويعلم حقائق ما حوله من الأشياء ، فإذا فسرنا قوله سبحانه : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ . بما فسرناه به ، فليس هو مذهبنا لنا في الفهم ، ولا رأياً نبشكره ، إنما هو نهج القرآن ، وعين المفهوم من كلامه سبحانه ، كلما أسند التعليم مباشرة إلى ذاته الشريفة

وامتياز آدم بهذا الاستعداد واضح من أنه تعالى أشعر الملائكة بأسلوب على جعلهم يقدرون فضله ، ويقرون له بالتقدمة عليهم : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ .. إلى آخره ﴾ ، فقد عرفت الملائكة في تلك التجربة خاصية آدم في العلم ، وأنه مقدم فيه عليهم ، فإن علمه عليه السلام « علم كل » أخذاً من قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ، أما علمهم فهو غير كل أخذاً من قولهم هم : ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ .

والآيات الكريمة إذ تشير إلى تأهيل آدم بخاصية العلم ليقم في الأرض

نمطا جديدا من الحياة، إنما نسير في الخط الذي يقرر المواهب التي ترشحه للخلافة .. ولا نستطيع في هذا المقام إلا أن نشير إلى خاصته الأسباسبية التي هي رأس خواصه كلها ، تلك التي وردت في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأُئِكَتِ . إِنِّي خَاقٍ بَشَرًا مِنْ طِينٍ .. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ - أَى أُنَمْتُ لَهُ كِيَان بشريته وخواصها ، اذا سويته على هذا - وَنَفَخْتُ فِيهِ رُوحِي ، فَفَعُّوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ، فقد أخبر الله الملائكة أن الخليفة المرتقب سيمتاز بخاصية روحية زائدة على خواص بشريته الأرضية في معرض تكريم له في المبدأ الأعلى ، فقد هيئت الملائكة بذلك لأن تدرك « الأسماء كلها » أى الأشياء كلها . كما في قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها .. وقد حددت مدارك الإنسان مدى تلك « السكينة » في قوله الأسماء كلها .. فهى السكون كله ظاهره وباطنه ... ونعنى بالظاهر كائنات الطبيعة ، وما تتضمن من ثروة وطاقات ، ومالها من قوانين ومعطيات .. معطيات فى شتى علوم السكون كالكيمياء والطب والأحياء والفلك ونحوها ، وما يستنبط من ذلك من منافع وصناعات ووسائل للعمارة .. والعقل يوجه لذلك خواصه التى نسميها الإدراك الحسى ، أو العقل الطبيعى والرياضى ... والمراد بالباطن ما تدركه فى السكون الطبيعى نفسه من دلالة كائناته على الخالق . والعقل يوجه إلى ذلك خاصية الخلقية التى تبهر فى السكون أنه مخلوق ، فإذا امتنعت على ذلك انكشفت للفكر معالم الصنع الدالة على صفات الصانع تعالى : صفات القدرة ، والعلم والحكمة ، والكرم ، والود والرحمة والبر .. ومعرفة الله هى حقيقة العلم .. وما أحكم ما يلاحظ الألوهى دخول هاتين الناحيتين : الظاهرة والباطنه فى مضمون قوله تعالى : وعلم آدم الأسماء كلها » ، فيقول فى تفسيره : « والحق عندى .. وهو ما يقتضيه منصب الخلافة ، هو أنها أسماء الأشياء علوية أو سفلية .. جوهرية ، أو عرضية » ، ويقول فى ناحية التعليم الحسى : « إنه خلقه من قوى

متباينة مستعداً لإدراك أنواع المدرجات ، وألهمه معرفة « ذوات الأشياء » وأسمائها
وخواصها — ومعارفها ، وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفصيل آلاتها ، وكيفيات
استعمالها » ويقول عن حقيقة العلم في الناحية المعنوية : « هو ظهور الحق جل
وعلافيه بجميع أسمائه وصفاته حسب استعداد الجامع بحيث علم وجه الحق في
تلك الأشياء ، وعلم ما انطوت عليه ، وفهم ما أشارت إليه ..

ولعلنا قد صرنا بإزاء حقيقة قاطعة بأن ذلك « العلم الكلى » كان قدراً
حتمياً لقيام الخلافة ، إذ هي بدونها تصبح غير ذات موضوع ، فليست الخلافة حلية أو
شارة مما تزين به الصدور في معرض الفخر والمباهاة ، إنما الخلافة نسيج من العمل ،
وتكليف رفيع القدر لا تؤدي تبعاته ، ولا يتحقق على وجهه إلا بالعلم .. ولعل هذا
يرشح المذهن والنفس إلى موضوع الخلافة ...



الباب السادس

الخلافه

أولا: في إطار الخلافة

١ — من الخليفة ؟ ..

الخليفة في اللغة من يخلف غيره في أمر من الأمور : قال الإمام الطبري في تفسيره ... « الخليفة من قولك خلف فلان فلانا في هذا الأمر ، إذا قام فيه مقامه »

واختلاف العلماء فيمن هو الخليفة ؟ ..

(أ) فروى الطبري عن الحسن البصري : أن المراد بالخليفة : « هم أولاد آدم الذين يخافون أباهم آدم ، ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله »
فالخليفة فيما يرى الحسن البصري — ليس هو آدم عليه السلام ، إنما هم بنوه لأنهم يخلفون أباهم ويخلف بعضهم بعضا

(ب) ويقول القرطبي : « والمعنى بالخليفة هنا في قول ابن مسعود وابن عباس . وجميع أهل التأويل . آدم عليه السلام » فابن مسعود وابن عباس وغيرهم يرون الخليفة هو آدم — عليه السلام — لا أبناؤه .

(ج) ويقول الزخشرى : « وأريد بالخليفة آدم . واستغنى بذكره عن ذكر بنيهِ . كما يستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك : مضر وهاشم » أى أن الزخشرى يرى المراد بالخليفة هو آدم وبنوه جميعا ، وإنما لم يذكر بنوه في الآية اكتفاء بذكره لأن ذكره يشملهم ويدل عليهم ، على ما لوف العرب في الاكتفاء بذكر الأب حين يراد القبيلة كلها ، كما يقال: مضر ، والمراد بنو مضر جميعا .. ويوضح ابن كثير ذلك بقوله : « والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً — أى بعينه — إذ لو كان ذلك لما حسن

قول الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل هذا . أى أن الملائكة رأيت أن وصف الخلافة ينسحب على النوع بأسره - لا على آدم فقط - فكان كلامهم عن الإفساد وسفك الدماء متوجها إلى من يفعل ذلك من ذريته لا إليه .

والآية السكرية تسع الأقوال الثلاثة . . وليس ما يمنعنا أن نختار ما رأى الزمخشري وابن كثير ، لأن فيه معنى زائداً على القولين الآخرين ، فالخلافة فيه تخص آدم وأبناءه جميعا - ولأن نصوص القرآن في القصة وغيرها تدل على أن عناصر تكوينه - عليه السلام - هي عناصر تكوينهم ، فاستعداده للاتصال بأفق الشياطين . هو استعدادهم ، وملكات التعلم التي بثت فيه ليعلم خصائص الأشياء كلها . هي مواهب بنيه ولا ريب . . وخصائص الروح الإلهي التي نفخها الله في آدم فأكرمها هي خصائص الروح في بنيه ، والله يقول: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ^(١) ﴾ فالتكريم في قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ » يرجع إلى خصائص الروح التي تهب اصحابها من الكمالات ما يكون به أهلا للتكرمة . . وفي معنى اجتماع آدم وبنيه على خصائص واحدة جاء قوله تعالى: « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ صُّورٍ وَكُنتُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ^(٢) » فإن حق المقام أن يقال : ولقد خلقنا آدم ثم صورناه . ثم قلنا للملائكة . . الخ . لأن خلقنا وتصويرنا إنما جاء بعد خلق أئبنا آدم وتصويره وإسجاد الملائكة له ، لا قبله ، واسكنه عدل إلى إظهار الكلام في صورة خطاب لنا ، ليقرر أن خلقه لآدم هو خلق لنا . وتصويره لآدم

هو تصوير لنا .. وإذا كانت خصوصيات الامتياز - التي أهل بها للخلافة - دائرة بينه وبين بنيه ، كانت الخلافة تكليفا له ولبنيه ، ولآ جرم ..

٢ - الخلافة عن من ؟

والعلماء - في ذلك - أيضا أقوال منها : أنها خلافة عن الملائكة ، أو عن الجن أو عن الله تعالى ..

(أ) فروى الطبري عن ابن عباس : أن أول من سكن الأرض الجن . فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء . وقتل بعضهم بعضا . فأخرجهم الله منها إلى جزائر البحور وقمم الجبال ، ثم خلق آدم فأسكنه إياها بعدهم ، فلذلك قال : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » يخلفون الجن فيسكنونها ويعمرونها^(١) فالرواية المعزوة إلى ابن عباس رضى الله عنه تدل على أن الخلافة في الأرض هي عن الجن ... ثم ذكر الرأي الذي قال : إنها خلافة عن الله تعالى ..

(ب) ويقول القرطبي في تفسيره : « إنه يخلف من كان قبله من الملائكة في الأرض ، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما روى » ، فهي عند القرطبي . خلافة عن الملائكة أو عن الجن ..

(ج) وقال أبو السعود في تفسيره : « المراد بالخلافة : إما الخلافة من جهته . فيجاءه في إجراء أحكامه .. وإما الخلافة عن كان في الأرض قبل ذلك .

(١) تكملة الرواية المعزوة إلى ابن عباس هي : أن الجن حين أفسدوا وسفكوا الدماء ، أرسل الله عليهم إبليس في جند من الملائكة فقاتلهم حتى أحرقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال . ولاندرى مدى صحة إسناد ذلك إلى ابن عباس رضى الله عنه . على أن أقوال ابن عباس إنما تنلفى بالتقدير والاعتبار فيما يخبر أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فهمه من نصوص القرآن والسنة ، أما ما يزيى إليه من أخبار الغيب مما لم يرد في كتاب الله أو نص ثابت عن المصوم ، صلى الله عليه وسلم ، فلأنه أن نشك في نسبتها إليه ، وأن نضفه إلى جلة الاسرائيليات التي دسها علينا خبثاء اليهود :

(د) ويقول الفخر الرازى . إن الخلافة « إما خلافة عن الجن ، وإما خلافة عن الله »

(هـ) ويقول الزمخشري : إن الخلافة إما عن الملائكة ، وإما عن الله تعالى ولا يخرج ما فى سائر كتب التفسير القديمة المعتمدة على ذلك .. ومنها ترى أنهم يختلفون على الجن والملائكة ، ولا يختلفون عن أنها خلافة عن الله عز وجل (و) وهناك من يقرأ ما يحكيه الله تعالى عن الملائكة من قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » فيذهب إلى أن آدم كان خليفة لأقوام سكنوا الأرض قبله . كان دأبهم الإفساد فيها وسفك الدماء .. ويبنى رأيه على أن الملائكة — وهى ذوات نوانية لا لا تعرف الفساد ولا سفك الدماء — ما كانوا يقولون قولهم ذلك إلا لأنهم رأوا طرازا من البشر عاشوا قبل آدم فى الأرض يمثلون تلك السيرة الفاسدة .. وهو قول لم نجده لأحد من قدامى المفسرين — فيما خلاص إلينا من كتبهم وأقوالهم — وهو استخراج لا بأس به ، بل قد يكون أقرب إلى المعقول من الظن بأنها خلافة عن الجن ، إذ الجن لا دماء لها تسفك كالإنسان . ولكنه يصطدم بما يفيد ظاهر نصوص القرآن الكريم من أن آدم أبو البشر ، إذ ليس فى تلك النصوص ما يفيد بظاھرہ أن آدم عليه السلام — قد سبق ببشر مثله فى هذه الأرض ، بل كلها تشير إلى أنه بدء ظهور البشر ، ورأس الإنسانية القائمة الآن ، والله تعالى يقول للملائكة : « إِنِّي خَاقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » فهو إخبار باستحداث عنصر — أو كائن جديد فى هذه الأرض ... فالقول بهذا الرأى اجتهد تحفه مزال كثيرة ولا يستقيم إلا بتأويل كلام الله فى غير ضرورة ملجئة . وهو فى البحث العلمى ، مذهب من يترك اليقين إلى الظن .. وفى الدين مذهب من لا يستبرى لهدينه وعمره .

ولعل الذين ذهبوا إلى هذا الرأي استأنسوا به بما عثر عليه علماء الحفريات من جماجم وعظام لجنس من المخلوقات اقترض من ماثات الألوف من السنين ، يظن أنه أصل الإنسان الحالي لبعض وجوه الشبه بينها وبينه ... وهو استثناس خاطيء ، فإن هذه الحفريات ما تزال في دور الظنون ، ولم تبلغ مرتبة العلم اليقيني بمد ، وما زال رجالها مجدين في سد الثغرات القائمة ، واستكمال الحلقات المفقودة ، وليس من الدين ، ولا أصول البحث العلمى فى شئ أن ندع اليقين الذى تستقر عليه ضمائرنا وعقائدنا بكتابات الله . إلى فروض وظنـون لا تورث سوى البلبلة والشك

(ز) وقد ذكر أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار — رحمه الله — فى كتابه قصص الأنبياء أنه : « قد وجد من البشر فى الأزمان الغابرة والحاضرة من يدعون أن عمران بلادهم أقدم من خلق آدم ، كأهل الهند ، وقد كانوا فى الزمان السابق يدعون أن آدم كان عبدا من عبيدهم ، هرب إلى الغرب بأولاده .. وإلى القول بوجود أوادم سوى آدم يشير المعرى بقوله :

جائر أن يسكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم^(١)

وهو قول لم يورده الأستاذ إلا على سبيل استكمال عناصر البحث ، فهو رضى الله عنه أجل من أن يعول على أساطير القدامى ، وأوهام الشعراء

٣ — الخلافة عن الله

فإذا عرضنا تلك الأقوال ، رأينا محىء آدم إلى الأرض ليعيش فيها بعد أقوام سبقوه ، أمرا عاديا ليس فيه ما يستحق أن ينوه الله بقدره ، ويعلنه إلى الملائكة فى معرض التبجيل والإشادة

(٤) قصص الأنبياء لشيخ عبد الوهاب النجار ص ١١ .

وقد نفهم أن يخاطب الله آدم بأنه جعله خليفة من قبله ، ليكون الخطاب توجيهيا إلى التأمل في مصائر من سبق ، تثبيتا للقلب ، وتحصيلا للعبرة .. أما أن يكون الخطاب للملائكة يخبرهم فيه بأنه سيخلق بشرا مسكان بشر سبق ، فإن خلوه من مرامي العبارة والحكمة يصرف الذهن عن اتخاذه رأيا يحفل به .

هذا على افتراض أن تمت بشرا سبقوا آدم ، فكيف والافتراض ساقط ، وفي الرأي ما قدمنا من ثغرات ؟ ... فإذا عرضنا للرأي الذي يقول : إنها خلافة عن الجن لم نجد في نصوص الكتاب أو السنة الثابتة ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد^(١) .

على أن إخبار الملائكة بأنه سيخلق بشرا يخالفون الجن في سكنى الأرض ، هو كإخبارهم بأنه سيخلق بشرا في الأرض مسكان بشر سبق ، في خلوه من الحكمة ، وعدم جدارته بالاعتبار .

فإذا نظرنا إلى الرأي الذي يقول : إنها خلافة عن الملائكة ، برزت لنا نفس الاعتراضات التي تعترض خلافة الجن .. ومهما ننظر في خصائص الملائكة وأعمالهم ، فإن المباعدة بين أمرهم وأمر الإنسان لا يتصور منها أنه — في أحسن حالاته — يؤدي الآن ما كان يؤديه الملائكة من قبله في هذه الأرض ..

أما أنها خلافة عن الله ، فذلك ما نجد له وجوها من الاستدلال يطمئن إليها العقل منها : تنويه الله به ، فإنه سبحانه قد أعلنها ، ومهد لها في الملأ الأعلى قبل إظهارها بقوله : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً «
أى سأجعل في الأرض خليفة ، وإنما يكون ذلك حين الحفاوة بالأمور الجليلة والأقدار ذات الشأن .. وليس من ذلك في شيء أن بشرا سيخلف بشرا في هذه

(١) تناقض هذه الآراء لأنها جديرة بالمناقشة ، بل ليطمئن من يحسنون الظن بها إلى أننا اخترنا من دونها الخلافة عن الله عن تمحيص وموازنة .

الأرض أو خلقا سواه ، جناً أو غيره ، فإن العقل — على فرض جواز ذلك — لا يرى فى شىء منه أى ميزة تدعو للحفاوة بها والتمهيد لها قبل ظهورها على النحو الذى بينا ...

ومنها ما نلاحظه فى دعوة الملائكة إلى مودة ذلك الخليفة ، والحفاوة به ، والسجود له سجد نحية وتسكreme . وهو أمر خطير لا نجد له حكمة ، إذا كان قد أريد لهذا الخليفة أن يكون خليفة لجن أو بشر أو نحوها . . إنما تبدو الحكمة وتستقيم الدعوة حين نلاحظ أن المحتفى به خليفة عن الله جل شأنه :

ذلك إلى أن هذا الخليفة قد نفع الله فيه من روحه ، فصارت خصائص الروح قوام وجوده ، وجماع مواهبه . . وليس لله تعالى صورة حسية ، إنما هى الصفات ، قال الإمام النيسابورى فى تفسيره شارحاً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن الله خلق آدم على صورته ^(١) » : « أى خلقه على صفته ، فأعطاه — على ضعفه — من كل صفة من صفات جماله وجلاله أنموذجاً » وسيأتى مزيد بيان لهذا الحديث ، إنما يعنيننا منه فى هذا المقام تلك الصفات القدسية فى الإنسان ، فإن الذى يلاحظها حين نتحدث عن الخلافة إنما يلاحظ النموذج الذى يقرر للبشر مكانه من الله ، وبالتالي مكانه من الخلافة عنه سبحانه ، وليس فى منطق تلك الملاحظة أى مكان لخلافة عن غيره جل شأنه . .

٤ — الخلافة وتوحيد الله وعبادته :

وإذا خلصنا إلى أن خلافة الإنسان هى خلافة عن الله تعالى ، فما عسى أن يكون موضوعها ؟ .. هل هو توحيد الله — عز وجل — مثلاً ؟ .. أو هو عبادة الله ؟ ..

(١) رواه البخارى ومسلم

والذى يبدو بقليل من التأمل أن توحيد الله « حقيقة » من حقائق الكون القائمة ، أما الخلافة فمنهاج يؤديه المرء عن غيره نيابة عنه .
والفرق بين الحقيقة والمنهاج : أن الحقيقة بمثابة القاعدة التى يهتدى بأحكامها وأن المنهاج هو الخطة التى يهتدى فيها بأحكام القواعد ، ونور الحقائق .
توحيد الله حقيقة لا بد أن ندركها لنصحح بها سلوكنا ونقوم بها أعمالنا فى وجودنا الروحى : وجود القيم والمثل تقوم مقام الواحد نصف الاثنين فى وجودنا الاقتصادى ، حيث تقوم بها موازين الصفقات ، ونصحح عليها حساب الربح والخسارة ..

توحيد الله — علم معالم الكون ، به تعتدل الأوضاع ، وتنبأ العقول للعمل ، وليس هو العمل ذاته ..

توحيد الله نور لحامل المنهاج .. وليس هو خطة ذلك المنهاج ..

وإذا كانت الخلافة ليست هى توحيد الله ، فهل هى عبادته سبحانه .. ؟
إن مما لا شك فيه أن الإنسان خلق — أساما — ليعبد الله ، وهو سبحانه يقول : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » . فإذا كانت العبادة هى الخلافة ، كان معنى الآية : أن الله تعالى لم يخلق الجن والإنس إلا ليخلفوه ، وهو معنى لا يستقيم مع عدة اعتبارات مسلمة . منها :

• أن وصف العبودية مطرد فى كل ذات ، وليس كذلك وصف الخلافة ، فكل خليفة عبده ، وليس كل عبد خليفة .. وقد يكون للرجل — على ما كان فى الماضى — عبيد كثيرون ، فيصطفى بعضهم ليؤدى عنه بعض مهامه ، أو ليخلفه فى بعض شأنه فى جهة من الجهات .. وليس من مستلزمات العبودية أن يجعلهم كلهم كذلك ..

• وقد يكون من التطبيق لما تقدم أن الله تعالى لم يقل فى الجن ، ولا

في الملائكة : أنه نفع فيهم من روجه بل جعل ذلك لخصوصية للإنسان وحده ،
فلماذا أمده سبحانه بها ؟

إن العبادة ليست هي العلة التي اقتضت تأهيل الإنسان بتلك الخصوصية ، فإن
الملائكة يعبدونه سبحانه بدون حاجة إليها ، وكذلك الجن .. إنما تظهر العلة إذا
لاحظنا — إلى جانب ذلك — أن الله جل شأنه لم يقل في الجن ولا في الملائكة
أنه جعلهم خلفاء في الأرض ، بل خص الإنسان وحده بذلك ، فمن خلال الارتباط
الوثيق بين الخصوصيةين : خصوصية الروح ، وخصوصية الخلافة ، تنقدح العلة
الصحيحة ، ويسوغ لنا أن نقول : إن تلك الروح بما لها من خصائص الإمداد
والمعونة — كانت تأهила لا بد منه للإنسان ، أو جهازا لا تؤدي مقاصد خلافته
بدونه .. فتقرير الروح موهبة للخلافة ، مع إمكان تحقق العبادة بدونها ، يظهر
الفصل الذي يجعل الخلافة شيئا غير محض العبادة .

● على أن موضوع العبادة بمعناها الخاص في الصلاة والصيام والحج .. إلخ
لا يتصور فيه معنى الخلافة ، فلا يقال — مثلا — إن الصيام أو الصلاة خلافة
عن الله في أمر من الأمور ..

فإذا ذهبنا ننظر إلى العبادة في أفق المعنى العام ، ألقيناها وجدانا صرفا جليلا
يغمر مواهب الإنسان كافة : مواهبه في الذوق ، والإحساس ، والإدراك ، والرغبة
والاختيار .. وجدانا من الإعجاب بخالق الكون العظيم ، وبمجده وتعظيمه ، وحبه ،
والاحتياج إليه ، وخشيته ، والثقة به ، والركون — بل الفرار — إلى مساحته ..
وجدانا من الثقافة السكونية يسطم على وعي للرء كله من الفكر في آيات
السموات والأرض ، وما للكائنات والنعم من دلالة على صفات القدرة ، والعلم ،
والحكمة ، والمهينة والإحاطة ، والكرم ، والرد ، والبر ، والرحمة ، وغيرها من
(٩٠ — آدم)

صفات الجلال والجمال .. فإذا هو نابض في وجوده كله ، من غير تقدير منه ، أو اختيار ، بتقديس الخالق جل شأنه ، وتسبيحه وتحميده ..

وإذا الوجدان نفسه أمر على وجود المرء وجوارحه ، فهي مقيدة به ، مرتبطة بأمره .. ذلك الوجدان الساطع ، الأمر الغامر ، المنبعث من أعماق النفس تأثراً بروائع آثار الله في الكائنات ، هو قيد عبودية الإنسان لله ، وحقيقة تلك العبودية ، ومعناها العام ... عبودية لا يفرضها قانون ، ولا يحمل عليها قسر أو قهر ، ولا يقبل فيها نفاق أو خداع ، ولا يتصور معها تناقل أو إعراض ... هي وجدان جليل جميل ينبعث في النفس لرؤية كل جميل .. فهل الوجدان خلافة عن الله ؟

٥ — كلنا خلفاء :

إن الخلافة وصف عام ، أو تكليف شمل البشر كافة .. فلأناس جميعاً يرثون خصائص آدم — عليه السلام — ما كان منها روحياً ، وما كان غير روحى ، لافرق في ذلك بين شعب وشعب ، ولا بين جنس وجنس ،

ولقد قدمنا الدلالة على ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ (١) فهو في الحقيقة قد خلق آدم ، ثم صورته ، ثم أمر الملائكة أن يسجدوا له ، ولسكنه أخرج القول على صورة خطاب لنا ليبين أن خلق آدم خلق لنا ، وتصويره لآدم تصوير لنا ، وإذا ، فهمات آدم المترتبة على ما سوى عليه من مواهب هي مهماتنا ، ومنها الخلافة ، على ما قدمنا .. قال الإمام البيضاوى في تفسير الخلافة : « إن هذه نعم تعم الناس كلهم ، فإن خلق آدم وإكرامه ، وتفضيله على الملائكة بأن أمرهم بالسجود له ، إنعام يعم ذريته »

وقد يبدو أن ذلك التعميم مناقض لما قلنا في الفقرة السابقة - فقرة العبادة - من « أن وصف اليهودية مطرد في كل ذات ، وليس كذلك وصف الخلافة .. فكل خليفة عبد ، وليس كل عبد خليفة » ..

والحق أنه لا تناقض ، فإننا إذا قلنا : « إن وصف اليهودية مطرد في كل ذات » إنما قصدنا كل ذات كونية تدخل في عموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾^(١) ، سواء أ كانت هذه الذات إنسية أو جنية ، أو ملائكية ، أو ذاتا مما استأثر الله تعالى بعلمه من دوننا .. وقد جاءت الخلافة تكليفا واردا على وصف اليهودية خاصا بالبشر وحدهم من دون الجن والملائكة ، كما بينا في الفقرة السابقة ، فكان كل خليفة عبدا ، ولم يكن كل عبد خليفة .

وإذا كان في الناس من يسلك نهجا بعيدا عن سمت الخلافة ، فليس ذلك لأنه لم يؤهل لها ، ولم يكلف شيئا من تبعاتها ، بل لأنه جهل قدر نفسه ، وشرف تكليفه ومسئوليته ، فاسأخ مما آناه الله ، ومال مع دواعي الحس إلى ما مال إليه ، على مثل ما تقرأ في قوله سبحانه : ﴿ وَآتَى الْكَلْبَ عَلِيمَهُمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَكَوْشِنَا لِرَفْعَتِهِ رَبَّهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٢)

فالآية حين تضرب المثل للناس كافة ، إنما تدعوهم إلى ما في أنفسهم من آيات الكرامة والمواهب ، حتى لا يكون حالهم من الهوان حال من انساخ منها .. وعموم المثل يدل على عموم المواهب في كافة البشر ، وهو آية الترشيح للخلافة على ما قررنا في غير موضع .

ولما يريد الله للبشر من تمام الكرامة ، وإقامتهم دوماً على سمت الخلافة ، كان يستخلف في عبادته — أى في هؤلاء الخلقاء — من يدعوهم إلى الله ، ويقبم بينهم نموذج الخلافة التي نيطت بهم ، على مثل ما نقرأ في قوله تعالى :

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاخْلُفْ ، فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ^(١) ﴾

ولعل منه قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ ﴾ ،

فكون بعض الناس أو كثير منهم إلى أهوائهم أنساهم أنفسهم وما أريد لهم من الخير ، فأقام الله فيهم — رحمة منه — من يدعوهم إلى ما نسوه ويذكروهم بإياه فكان تم إلى جانب الخلافة العامة خلافة خاصة ..

ثانيا : ظنون حول الخلافة

١ - الخلافة ومنن الطبيعة :

إذا كانت الخلافة ليست هي عبادة الله ، ولا توحيده ، فأى شئ تكون ؟
والعمل مما يمهّد للإجابة عن ذلك ، أن نستبعد ما يتوهمه البعض من أن رسالة
الإنسان في الحياة هي أن يسخر قوانين الطبيعة ويهيمن عليها .. ويفرض عليها
شيئته .. ويخضع جبروتها لإرادته .. إلى آخر ما لديهم من عبارات جوفاء ، مبغضها
غرور الإنسان وجهله بحقيقة نفسه ، وبما حوله ، فإن الذي نراه وثبته التجربة
ويقرره العقل ، أن الطبيعة مسخرة بالخالق سبحانه ، فهي قد نسقت بحيث تكون
ملائمة لمصلحة الإنسان ، مطوعة لمقاصده ، فالإنسان لم يسخر شيئا حين أسقط له
شجر الغابة ثمارا فأكل .. ولا حين رأى ماء النهر أو ماء المطر متجمعا في مكان فشرب ..
ولا حين رأى الحديد فانتفع به نعم ، ولم يسخر الليل حين انتفع بظلامه ، فسكن
فيه بدنه ، وعقله ، وعصبه ، ولم يسخر الشمس حين انتفع بمواهب حرارتها وضوئها ،
ولم يسخر الماء حين رأى بعض الأخشاب الجافة طافية عليه فركبها ، وهذبها
بزوارق وصفنا .. ولم يسخر الهواء حين رآه يميل الأشجار ، ويدفع الأشياء ، فتعرض
له بشراع سفينته .. إنه لم يدخل شيئا على طبيعة الماء والهواء ليطوعه لمشيئته ، إنما
انتفع بالطبيعة على ما وجدها عليه ... إن قوانين الطبيعة لم يخترعها أحد من البشر
لأنها فطرة الله منذ بدء الخليقة ، وكل عمل الإنسان فيها أنه اكتشفها ، أو يكتشفها
فيسهل عليه الانتفاع بها .. وقد قرر القرآن تلك البديهة الشاخسة لنا في كل وجه
يمثل قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ
لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمْ

الْأَنْهَارَ ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمْ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا (١) ﴿

فالكائنات بطبيعتها مذلة مسخرة للإنسان ، وما عليه إلا أن يعرف كيف ينتفع
بها ، أو يعرف القانون الذى تنقاد به منفعتها له .. وعلى قدر ما يعرف أو يكشف من
تلك القوانين ، تتسع دائرة انتفاعه بما أعد الله له .. وبهذا التقرير يزول وهم من
يخيل إليه أن الإنسان جاء فقمر الطبيعة بحجروته ، وأغصمها لمشيئته إن الإنسان
لم يسخر شيئا ، إنما هو منتفع بما هو مسخر له ..

٢ — هل نهج الخلافة تكرار لقوانين الطبيعة ؟

هذا معنى يجب تقريره لننقى عن الأشياء شوائب الوهم والنور ، فنبصرها نقية
على حقيقتها .. وثمة حقيقة أخرى قد يتحدد بها كله عملنا فى الخلافة ؛ ذلك أن معنى
أن الطبيعة مسخرة لنا ، أنها محكومة بمجموعة دقيقة من النواميس أو القوانين التى
تنظمها وتدبر أمرها ، على ما فيه المصلحة : فالمعادن تتكون فى الأرض بقانون ، بل
أن لكل معدن قانونه الخاص الذى يؤلف له ذراته وخصائصه على ما يريد ، فلا
يكون إلا ما أراد ، قانون الحديد — مثلا — لا ينتج إلا الحديد ، ولا ينتج
رصاصا ، وقانون الرصاص لا ينتج نحاسا البتة .. وهكذا .. والنبات يتغذى من
الأرض بقانون ، بل إن لكل صنف — فاكهة كان ، أو حبا . أو خضرا —
قانونه الخاص الذى يتغذى به ، بل إن لكل لون من كل صنف قانونه الخاص
الذى يستصفي له من عناصر الأرض نسبه الضرورية لتمييزه عن غيره بطعمه ،
ولونه ، وخصائصه : فَرَسَوَانٌ وَغَيْرُهُ نِسْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَزَيْتُونٌ

بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ^(١) وَالْكَوَاكِبِ تَتَجَاذِبُ ، وَيَجْرِي
كُلُّ مِنْهَا فِي فَلَكٍ وَحَوْلَ نَفْسِهِ بِقَانُونٍ .. وَتَنْشَأُ السَّحُبُ وَيَنْزِلُ الْمَطَرُ ، وَتَجْرِي الرِّيَّاحُ ،
وَتَسْبَحُ الطَّيْرِ فِي الْمَوَاءِ وَتَتَكَاثَرُ السَّكَاكِنُ وَتَتَوَالَدُ ، كُلُّ ذَلِكَ وَغَيْرُهُ إِنَّمَا يَحْدُثُ
بِقَوَانِينٍ مَفْصُلةٍ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ ﴾ ، فَلَا يَحْدُثُ
شَيْءٌ جِزَافًا بَتَةً ، فَقَدْ بَرَأَ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى قَالِبِهِ وَنِظَامِ خَلْقَتِهِ الْمَقْدَرِ ، ثُمَّ
سَلَكَهُ فِي هِدَايَةِ نَامُوسِهِ الَّتِي تَطْوَعُهُ لَوْظِيفَتِهِ ، فَلَا يَنْحَرِفُ عَنْهَا أَوْ يَتَخَلَفُ ..
﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ سُلْطَانَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ .

ذلِكَ عَمَلُ سُنَنِ اللَّهِ فِي السَّكُونِ الطَّبِيعِيِّ عَامَةً ، وَفِي الْأَرْضِ خَاصَةً ، فَمَا عَمَلُ
الْخِلَافَةِ فِي ذَلِكَ ؟ ..

إِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَقُومُ لَهُ سُبْحَانَهُ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ بِمَا يَرِيدُ . وَلَيْسَ بِمَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ أَوْ
الْوَاقِعُ أَنْ يَسْكُونُ عَمَلُ الْخِلَافَةِ تَسْكَرَارًا لِعَمَلِ هَذِهِ السُّنَنِ .. وَإِذَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ
لِلْخِلَافَةِ عَمَلٌ غَيْرُ قَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ .. أَيْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذْ قَدَّرَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْمِلَهُ خَلِيفَةً فِي
الْأَرْضِ أَرَادَ لَهُ مِهْمَةً تَخْتَلِفُ فِي كُنْهٍ عَنِ الْمِهْمَةِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهَا السُّنَنِ فِي السَّكُونِ الْحَسِيِّ .

٣ - الْإِرَادَةُ بَيْنَ نَهْجِ الْخِلَافَةِ وَقَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ :

وَمَادِمَنَا بِصَدَدِ التَّفَرُّقَةِ بَيْنَ الْخِلَافَةِ وَعَمَلِ الطَّبِيعَةِ ، فَلْنَذْكُرْ فِي هَذَا الْمَقَامِ فَرْقَ
آخِرٍ غَيْرِ مَا تَقْدِمُ ، ذَلِكَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَا خِيَارَ لَهَا فِي الْأَنْقِلَافَاتِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ ، أَيْ أَنَّهَا لَمْ
تَوْهَبْ مَوْهَبَةَ الْإِرَادَةِ الَّتِي تَجْعَلُ لَهَا الْإِخْتِيَارَ فِي مَوَاقِفِهَا نَوَامِيسَ اللَّهِ أَوْ مَخَالَفَتَهَا ،
فَهِيَ مُنْقَمَةٌ فِي سَطْوَةِ تِلْكَ النَوَامِيسِ لَا تَسْتَطِيعُ لَهَا خِلَافًا : ﴿ لَا الشَّمْسُ
يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ مَا يَمُوتُ النَّهَارُ - وَكُلٌّ
فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ^(٢) » .. أَمَا عَمَلُ الْإِنْسَانِ فِي الْخِلَافَةِ فَهُوَ إِرَادِي لَا غَرِيزِي

على ما نشاهد من أمرنا في مخالفه أحكام الله، واستبد ال مثل سوء والفساد بمثل الخير والحق التي أمرنا بتحقيقها .. فلو كان أمرنا في إمضاء أحكام الله موكولا إلى غريزة من الغرائز أرسنة من السنن لتولت السنن سياقتنا إلى تحققي ما هو مطلوب ، دون تدبر أو اختيار ، على مثال ما تساق شجرة الورد ، ونحلة العسل — مثلا — كل بسنتها : هذه تظهر غيرها بمحض السنة ولا اختيار لها ، وتلك ترسل رحيقها بمحض السنة أيضا ولا اختيار لها في شيء ، وقد أشاء الله تعالى إلى هذا المعنى بقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُسَكِّرُ النَّاسَ حَتَّى يُسَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ^(١) ﴾ وذلك بأن يخلق فهم جميعا استعداداً غريزياً — مثلا — يتقادون به قسرا إلى الإيمان ؛ قال الزمخشري في تفسير تلك الآية : « هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان » .

ذلك فرق، يجب أن نلاحظه ، فالخليفة مريد ، والطبيعة لا إرادة لها ..

٤ — هل الخلافة هي الانتفاع بثروات الطبيعة ؟ ..

وإذا ، فاعسى أن يكون دور الإنسان في تلك الخلافة ؟ ..

أهو الأكل والشرب ، وما إلى الأكل والشرب من ضرور السكد للانتفاع بثروات الطبيعة ؟ ..

إن الواضح أن الأكل والشراب نهج حلي لا يتصور العقل أن يكون مقصدا إيجابيا امند إلى الإنسان تحقيقه ، وقد فتح الإنسان عينيه لأول مرة على الغابة فوجد ثمارها فأكل ، ووجد الفدیر فشرب ، ولم يكن في ذلك أى مقصد إيجابى عمرانى يمكن أن يكون هو الخلافة للسندة إلى الإنسان ..

حقا إنه تقدم في كشف قوانين الطبيعة في السماء والأرض ، فزرع ، وبني

مصنع ، واخترع ، ولكن هل يخرج ذلك عن كونه « توضيحا » لدائرة انتفاعه وانتقالا من حال البداءة ، والسذاجة إلى المدى الذى يرضى رغباته وشهواته فى تنوع ما يأكل ويشرب ، ويلبس ويسكن ؟ . .

ولا يسوغ فى العقل ولا فى حكمة الله أن يكون الإنسان ذو المواهب والملكات العظيمة قد خاق لا شئ ، إلا لينتفع بالطبيعة على نحو من الأنحاء بدائى ساذج ، أو حضرى مترف معقد .. فلا بد من الاستشراف إلى الآفاق التى تبدو فيه الأمور للفكر مقدورة بميزان الحكمة الإلهية لتبين حكمة وجود الإنسان مقدورة بقدر مواهبه ذات الإلهامات العالية .

إن مبدأ تقرير دور إيجابى يذاط بالإنسان أمر بديهي يوجبه النظر إلى مواهبه ، كما يوجبه النظر من أفق حكمة الخالق ، وهو إلى ذلك مبدأ يعترف بعلو قدر الإنسان ، فإن افتراضه مسييا من كل تكليف — على ما يفترضه منطق الحضارة القائمة — هو افتراض لسقوط منزلته ، واعتباره هملا غير مسئول عن قيمة ما عالية ... فإذا كان هذا الدور هو خلافة عن الله تعالى فهو إعلان لما أريد للإنسان من كرامة عظمى . .

ذلك كله إلى أن الأكل والشرب ليس خلافة عن الله بأى وجه أو على أى حال ..

ثالثا : نحو أفق الروح

١ — الخليفة بين الحس والروح

وإذا لم تكن الخلافة شيئا مما تقدم ، فما عساها أن تكون؟ ...

إن ذلك يدعون أن نلتمس مفتاح موضوعنا في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ، فالآية تتضمن النص على « خليفة » .. وأن هذا الخليفة بحاله الأرض .. ونجد القرآن يزيد هذا الخليفة بيانا ووضوحا بقوله : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ .. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ .. وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، فَسَعَوْا إِلَهُ سَاجِدِينَ) ، ففي تلك الآية تحليل لتكوين ذلك الخليفة ..

(أ) فهو بشر من طين ، مكتمل نواميس البشرية .. وقد أسلفنا في فصل « عناصر التكوين » بيان ذلك .

(ب) وهو « روح من الله » على ما في قوله تعالى : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) ، والروح من أمر ربي لا علم لأحد بكنهه إلا له سبحانه ، ولكننا استخلصنا عبارات ما جاء في القرآن الكريم عن آثار ذلك الروح في حياة الإنسان .. وقدمنا ذلك في فصل « عناصر التكوين » عند بيان المراد بالروح ، وفي فصل « أفق الروح » وفي مواطن أخرى ، ومنه نتيين أن هذا الروح حقيقة علوية تتضمن من الخصائص ما يرشح الإنسان لإظهار صفات الحق ، والخير ، والحكمة ، والكرم ، وازد ، والرحمة ، والبر ، ونحوها .

(ج) وتتضمن الآية السكرية — أيضا — أن السكان الحسى الذى سماه القرآن « بشرا من طين » إن هو إلا « ظرف » للروح العلوى ، وذلك مقرر في قوله : وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ..

وإذاً، يكون « للظرف » دوره في الحياة، وللروح دوره .. ومن المبادئ أن يكون دور الروح مخالفاً في كنهه كل المخالفة لدور الظرف الذي هو الكائن البشري ... وهي ظرفية لا يعلم كنهها إلا الله .

* ولكن كيف يتصل الروح بالأرض — بظاهر الحياة — لينشئ فيها دوره ؛ ويترك فيها أثره ؟ ..

إن الروح أمر من صفات الحق والخير التي قدمنا .. أى أنه طاقة مجردة من الحس، وحقائق عقلية ليس لها قوام مادي، فكيف يتسنى له أن يتصل بظاهر الحياة، وهو أمر وصفي داخل قالب من الحس ؟ .. ولستنا نجد في ذلك ما يدعو إلى كد الذهن، فالملهود والمشهد أن الله قد خالق هذا القالب أو هذا البدن على أن يكون له جوارح : يد .. ورجل .. وعين .. وحواس .. ومدارك .. فتصله الحواس والمدارك بالخارج .. وتنفذ له اليد والرجل وسائر الجوارح ما يريد، على مثل ما يقول تعالى : (قَاتِلْهُمْ وَهَمَّ يَغْدِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) (١) .

فدور الجسم — الكائن البشري — بالنسبة للروح، هو دور « الوسيطة »، التي يحقق بها الروح في المجتمع ما يشاء من مذهب .. منهاج الحق، والخير، والرحمة، والبر * وقد قدما — في فصل أفق المادة وغيره — أن حلول الروح القدسي بالبشر اقتضى أن يكون لمتل الإنسان خاصية غير خاصية الإدراك الحسي، بها يدرك أن الكائنات خلق الله تعالى، وهي التي سميناها « خاصية الخالقية » وقدما إلى ذلك أن الإدراك الحسي خاص بإدراك مفرات الطبيعة وقوانينها، وطاقاتها .. وأن الإدراك الروحي الذي مفتاحه خاصية الخالقية يضيء إلى إدراك ما في الكون من آثار صفات الخالق تعالى : صفات القدرة، والعلم، والهيمنة، والإحاطة، والحكمة.

والكرم ، والود ، والرحمة ، والبر وغيرها .. فيكون للإنسان بهذا
دعائاً من العلم :

العلم الطبيعي

والعلم بالله

وبذلك يتحدد الفارق بين خصائص بشرية الإنسان ، وخصائص الروح
فيه .. وتبين معالم التقويم الذى تضمنه قول الله تعالى : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ
(خَلِيفَةً) ، فجاء هذا التقويم أنه روح منه تعالى يستكن فى كيان حسى من طينة
هذه الأرض .

٢ — هل حقق الإنسان فى نفسه تقويم « الخليفة » ؟ ..

للإنسانية فى الإنسان مطالبها التى يقوم بها أمرها .. وللروح مطالبه ..

ومطالب البشرية هى مطالب البدن : الطعام ، والشراب ، والملبس ، والمسكن ..
وأما الروح فلا أرب له فى طعام أو شراب أو نحوه من ضرورات الحس .. مطالبه
الوحيد الذى يؤتى به ثمره الذى يهتو إليه فى كل حال ، هو معرفة الله عز وجل ،
على ما قدمنا فى كثير من المواطن ..

ومن المعروف المسلم بحكم الواقع ، أن مطالب البدن تقع تحت حواس الإنسان
مباشرة فى تناول مداركه الحسية ، فيكون اشتغال وعيه بها أمراً طبيعياً دون إعمال
إرادة بحكم العادة .. وإذا كان من شأن الناس التنافس على تلك المطالب ، فإن
ذلك يثير فى النفس من دواعى الحرص والاهتمام ما يشغل وعى المرء ويستوعب
جهده .

ومن المسلم — أيضاً — فى مقابل ما قدمنا أن مطالب الروح ليست حسية

أى لا تقع عليها حواس الإنسان مباشرة، إنما هى حقائق «معنوية» تدرك بالفكر فى نفس الكائنات التى تقع عليها الحواس، ومعناه: أن إدراك الإنسان للحسّات يسبق إدراكه لدلائها المعنوية .. وأن اشتغاله بالحسّات قد يركز انتباهه فيما له فيها من مطالب حسية، فلا يتسنى للإدراك المعنوى أن يحقق رؤيته ويثبتها، فيظل الروح محروما حظه الذى يزدهر به .. إلا إذا كان الشخص من ذوى الفطر اليقظة والبصائر النافذة، فإن ذلك لا يدع للحس أن يستأثر باهتمامه وإرادته، إذ أن نكره المألوف يعتد دائما على رؤية الكائنات فى إطار نسبتها إلى الله، أى فى إطار نسبة الخلق إلى الخالق، وهو إطار يطالع فيه الفكر معالم الصنع الدالة على معانى صفات الصانع تعالى ... وبهذا يتاح لهذا الطراز العالى من الرجال أن يحقق رؤيته الفكرية المعنوية كما يحقق رؤيته الحسية، ويوفر للروح المعنوى معرفة الله . كاللبدن حظه الموفر من مطالبه

وهذا باب له حقائقه الدقيقة التى يطول تقريرها، ولسنا بصدددها، والذى يعيننا أن أكثر الناس تغلب عليهم اهتمامات الحس وشواغل المعاش، فلا يتاح للرؤية الفكرية أن تؤدى دورها. وبهذا لا يحققون فى أنفسهم نقوم «ال خليفة» .. وأن تحرير الإرادة من غلبة الحس وأهوائه هو مناط همة الإنسان فى الرؤية الفكرية، ومن ثم هو مناط الإنسان فى تحقيق ذلك التقويم .. ومن هنا قلنا منذ قريب — فى فترة ظنون حول الخلافة — إن عمل الإنسان فى الخلافة إرادى لا غريزى، بخلاف الطبيعة فإن عملها غريزى لا إرادى، ولو كان شأننا فى الخلافة غريزيا لسأقنا الغريزة إلى مراد الله دون تدبر منا أو اختيار، على مثل ما يقول تعالى: (وَكُوفُوا بِرَبِّكُمْ لَعَلَّ النَّاسَ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ)، فالإنسان مريد، والطبيعة لا إرادة لها ..

وقد قدمنا أن نفخ الروح فى بشرية الإنسان اقتضى أن يكون لعقله خاصية تدرك فى الكائنات دلالتها على معانى صفات الخالق تعالى ... وأن معانى تلك الصفات هى المراد الضرورى للروح ... وإذا، فالإنسان مؤهل بخافتين :

خاصية الفكر الموكلة بإدراك ما في آيات الكائنات من العبر والمعارف الدالة على معاني صفات الخالق تعالى .

وخاصية الروح التي لا يذهب أمرها ، ولا يتدفق نورها إلا بإزادها الضروري من معاني صفات الخالق تعالى . . وما على الإنسان إلا أن يؤدي ما عليه من حق التفكير في آيات الخلق ، فإذا معالم الجلال والجمال تبدو لفكره بآثار القدرة ، والعلم ، والحسكة ، والحق ، والمجد ، والعظمة ، والإحسان ، والعدل ، والكرم ، والود ، والبر ، والخير ، وغيرها . . فإذا أدرك الفكر منها ما أدرك ، واحتاز منها ما احتاز ، تلقاها الروح في شوق ونهمة .

وعايناً أن نذكر أن الصفات الواردة ليست صفات الله ، إنما هي .. « آثار » صفات الله ، وقد حرصنا على ذكر ذلك وتكريره ، فإن صفات الله عز وجل لا يعلمها إلا هو تعالى ، وقد أمرنا القرآن أن ننظر في آثار الصفات لا في الصفات بمثل قوله : (فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ) ، وعلى ذلك فالذي يدركه الفكر ويمتازه ويستنزله من ملكوت الآيات هو « آثار » صفات الخالق تعالى ، لاصفاته ذاتها .

وهرادنا أن الآثار الواردة هي آثار صفات الله ، فانظر ماذا يتضمن الأمر من معنى الصفات وبركتها ونورها ،

أما الروح فعروف أنه روح من أمر الله ... فانظر ماذا يتضمن من حقائق علوية أهلت الإنسان لأن تسجده بها الملائكة .

وكلاهما ليس من طبيعة عالم الحس ، ولا يمت إلى مادة أرضنا هذه بصلة فهو غير مهيأ لأن يستمد منها أو ينمو بها بحال . . وكلاهما قدسى علوى بالنسبة إلى الله ... يلتقيان على قدر في هيكل من طين ، التقاء السالب بالموجب ، فما أن يلتقيا حتى تجيش حقائق الروح ، وتثور خصائص الصفات ، ويتفاعل كل منهما

مع الآخر .. ويأتلف من قواعدها في ضمير الإنسان « كيان علوى » ليس من لحم ودم ، إنما هو نموذج من آثار الله جل وعلا . وهذا النموذج للمضى العلوى هو الذى عمده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ان الله خلق آدم على صورته » (١)

ومن حق المقام أن نذكر أن العلماء اختلفوا في ضمير الهاء في « صورته » : على من يعود ؟ . هل يعود هذا الضمير على آدم ، فيكون معنى الحديث : أن الله خالق آدم على صورته البشرية المعروفة ، وقالبه الحسى الممهور ؟ .. أو يعود الضمير على الله ، فيكون المعنى : إن الله خالق آدم على مثال صفاته القدسية ، ويكون اثره بآدم هو كيانه الروحى لا الحسى ؟

ونص عبارة الحديث يحتمل الرأيين — كما هو واضح — ولكن الحديث جاء برواية أخرى هي : « ان الله خلق آدم على صورة الرحمن » ، فكان ذلك مؤيدا مرجحا للرأى الثانى ؛ وقد ذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح فى تقرير عودة الضمير على الله تعالى : « أن اسحق بن راهويه كان يقول : صح أن الله خلق آدم على صورة الرحمن .. وأن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه كان يقول : هذا حديث صحيح » . وقد علق الحافظ ابن حجر على ذلك بقوله : « والمراد بالصورة الصفة ، والمعنى أن الله خلقه على صفته ، من العلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر وغير ذلك ، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شئ » ... (٢)

هذا . وقد قال النيسابورى فى شرح قوله : « ان الله خلق آدم على صورته » : أى خلقه على صفته ، فأعطاه — على ضعفه — من كل صفة من صفات جلاله وجلاله أنموذجا .. وذلك ضمن تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ۝ ١٠٠ ﴾

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) هذا التعليق بصيغة ٢٣٩ ج ١٣ من فتح البارى كتاب الاستئذان ١٠٠ أما بقية ما أوردها للحافظ فى ص ١٠٩ ج ٦ من الفتح ، كتاب المثنى طبعة الحلبي .

يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا^(١) . ونخرج من هذا بأن الله تعالى قدّر للإنسان من الخصائص والملكات ، والمواهب ، مآلوعى به ، ووجهه إلى تحقيق مهمته ، لاستطاع أن يحقق وجودا معنويا ذا خصائص ربانية نفيسة من آثار صفات الله تعالى

* ولعل ما قدمنا يمثل الخطوط الجامعة لشخصية الخليفة الذى يتولى عن الله خلافته فى الأرض ، فإن أحدا إذا أراد أن يستخلف على بعض مصالحه ، أو يسند إلى غيره بعض عمله ، فإنه يتجه بطبيعة الحال إلى من يكون أقرب شها بصفاته وخصائص تفكيره وتصرفه ، حتى يتاح للعمل أن يؤدى بالأسلوب وعلى الوجه الذى يرضاه صاحبه ، فلا جرم — وقد أراد الله أن تكون الخلافة لأدم — أن يؤهله بالخصائص ، والملكات التى يجتمع له بها وجود ربانى أو مثال مكتمل من معانى صفاته تعالى ، فيكون وجدانه هو أثر تلك الصفات فيه ، وتكون مشيئته هى إملاء تلك الصفات عليه ، فلا يشاء الإنسان إلا ما يشاء الله ، فتؤدى الخلافة بذلك عملا ومقصدا ، على أتم ما يريد الله من سداد وحكمة .

رابعاً : ما الخلافة ؟

١ - في تعاليل الكيان الرباني :

(أ) عرفنا أن هذا « الكيان الرباني » ليس كياناً من لحم ودم ، ولا شيئاً من الخس أيا كان ؛ إنما هو حصيلة من المعارف تتضمن أمن ما يملئه إدراكنا في هذا الكون من معاني صفات الله جل شأنه .. والإنسان حين يجيل فكره في قدس هذه الحقائق ، يكون أحرص ما يكون على حيازتها ، واستصفائها وشد أواصره عليها .. وبما أنها حقائق معنوية ، فليس له ما يحوزها فيه ويعتده عليها سوى قلبه .. ومن هنا سميت تلك الحصيلة النفيسة « عقيدة » قال في المصباح المنير : « اعتقد كذا ، عقد عليه القلب والضمير ، حتى قيل : العقيدة ما يدين الإنسان به .. » وعليه فعقيدة أى إنسان في الله هي حظه من معرفته به ، أى العلم بصفاته تعالى .

(ب) وبما أن هذه الحصيلة التي حيزت في الضمير هي حقائق شهدها الفكر عياناً في ملكوت الكائنات ؛ وتتضمن معاني صفات الله تعالى ، فإنها تحمل من القلب محل التصديق المطلق ، وذلك هو حقيقة « الإيمان بالله » . فليس الإيمان أمراً تلقينياً ، ولا قضية مستنبطة . إنما هو « تسليم » بما يشهد الفكر في آيات الكائنات وما يشهد للضمير في حناياه من صورة العالم الأكبر ، كما يسلم المرء بما تشهد له عينه السليمة عن قرب من شخوص الأشياء المحسة المادية ، بل أشد وأوثق .

(ج) وبما أن تلك الصفات العلوية التي ترسبت في الضمير ، هي صفات الحكمة ، والكرم ، والإحسان والود ، والبر ، والرحمة ، وغيرها ، وبما أن المفترض أن فكر الإنسان لا يفتر عن شهود معالمها في آيات الكون ، فإن حظوظه منها لا تنفصاً تتوالى عاياه في مدد متصل يؤكده بعضه بعضاً حتى ليؤلف في الضمير بناء

من قيم البر والود والرحمة ، ومبادئ الحق والخير والعدل ، هو حقيقة « إنسانية الإنسان » .. ولا معنى لإنسانية الإنسان إلا أنها مقومات هذا البناء .

ومبادئ هذا البناء وحقائقه تقوم في الضمير مقام القانون الحاسم ، أو السنة ذات الأحكام النافذة ، إذ تفرض نفسها على إرادة صاحبها لتحقيق مفهومها بين أفراد الإنسانية كافة ، في كل مجال وكل بيئة ، بلا تفريق بين قريب وبعيد ، أو بين جنس وجنس .. أو بين لون ولون ؛ منصفاً من نفسه بادية بدء في كل حال .

(د) وإذا ، فهذا البناء النفسى الباطن ، أو هذا الكيان الربانى ، هو لب حقيقة الإنسان وجوهره ، إذ هو معدن العلم فيه ، ومناطق التمييز ، وكل صفة حسنة ؛ وماعداه في الإنسان فهو مجرد وعاء له ... واللغة تسمى ذلك الجوهر أو تلك الحقيقة : « القلب » ، إذ تقول : « إن قلب كل شيء هو محض لبه » ، ويقول الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن : « ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك » ؛ ولذا نجد الإسلام لا ينظر في وزن ما يصدر عن المرء من قول وفعل إلا إلى هذا القلب ، على ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله لا ينظر الى صوركم واماالكم ، ولكن انما ينظر الى قلوبكم واعمالكم ^(١) » .

٢ - مدخل الى الخلافة

وإذا ذكرنا في تحليل الكيان الربانى أنه هو « الإيمان » .. وأنه في أحد الاعتبارات هو « العقيدة » ، وأنه في اعتبار آخر هو « إنسانية » الإنسان .. وأنه في تقدير حقيقة الإنسان هو « القلب » ، إذا ذكرنا ذلك لا يفوتنا أن ننظر في هذا الكيان إلى حقيقتين أساسيتين .

(١) رواه مسلم وابن ماجه

الحقيقة الاولى : أن قوامه ، أو « مادته » التي يقوم بها بناؤه هي العلم بالله
الحقيقة الثانية : أن هذا الكيان — باعتباره أ نموذجاً مكتملاً من صفات
الله — هو الوجود الحق لمسمى « الخليفة » .

هذا والحقيقة الاولى — أى العلم بالله — تقتضينا بعض الإيضاح والتعليق ؛ فهي
معارف كونية تتضمن حقائق الحكمة ، والعدل ، والحق ، والخير ، والإحسان ، والبر
والرحمة ، والود ، والعلم ، وغيرها ... ونلاحظ أن هذه الحقائق أسبى ما يتوصى
به الحكماء في رفع قواعد الأمم ، وتخطيط أصول الحضارات . . وبما أنها من
أمر الله — على ما عرفنا — والله تعالى لم يأمر الإنسان في عصر من العصور
بغيرها ، فإن ما تتضمن من حقائق ، هو ، ركائز خلافة الإنسان في الأرض .

والذى يعيننا أن العلم بالله — من هذه الوجهة — ذو وصف تقريرى يجد به
« الخليفة » منهج خلافته شاخصاً في ضميره .. وبدون هذا العلم لا تتحقق الخلافة بته ،
إذ هو التأهيل الفطرى التقافى الوحيد لها .

أما الحقيقة الثانية ، وهي الوجود الحق لمسمى « الخليفة » ، فإن هذا الوجود
باعتباره أ نموذجاً مكتملاً من الحقائق والصفات العلوية ، يتقرر له من الخصائص
الإيجابية نفس الخصائص التى تتضمنها تلك الصفات العلوية ، إذ هي عماده وحقيقته
وقد قلنا فى تحليل تلك الحقائق والصفات إنها هي حصيلة معرفة الإنسان بالله . .
وأنها هي « العقيدة » ، وأنها هي « الإيمان » ، فلنسلم أن للإيمان خصائصه وآثاره فى
الإيجاب والإبداع ، تضمنها قول الله جل شأنه : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ حَبِيبَ إِلَيْكُمْ
الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ

وَالْعِصْيَانِ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِثَةً . . الآية (١) ﴿
ففي هذا النص الكريم من حقائق الإيجاب ما يأتي :

(أ) أن حب الحق وزينته في القلب معناه نشوء أذواق جديدة تتحول
بضمير صاحبها من حب العرض الأدنى إلى ما لحقائق الإيمان وقيمه من نفاسة
وبهجة . . وقد وصف القرآن الكريم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
بأنهم كانوا : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ . ومن كان الإيمان زينة
قلبه ، فلن تجد لهمة دون عرش الله مبتغى : ﴿ قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ
فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْتَبُونَ ﴾ (١) .

أما المال وما إليه من عرض الدنيا فكانه في حياة المؤمنين هو مكان العدة
التي ينجزون بها ما استطاعوا لنفع عباد الله ونصر دينه . لا للترف والمكاثرة في
الجمع وشهوات الظهور والغرور . .

(ب) إن حب الإيمان وزينته يقوم في النفس بصيرة أو حاسة تبصر الحق
في أقوال الناس وأفعالهم ، ولذا تراه يحب أهل الحق . ويألف محبتهم ، وينفر
من أهل الباطل ويحتنب عشرتهم .

* ويقابل ذلك أن حب الدنيا وزينتها يقوم في نفوس ذويها معيارا يقيس
الناس بحسب مالهم من رفعة المنصب ، ووفرة الثراء ، وشرف (٢) النسب ،
وشارات الجاه . ونحوها من مصطلحات العلو الاجتماعي . . ويزدري من عدا
أولئك ، ولو كانوا من أرباب الإيمان ، ويقرر القرآن ذلك المعيار الفاسد : بقوله :
﴿ زِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْتَخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا . . الآية ،

(١) الحجرات : ٨

(٢) يراد بشرف النسب — هنا — علوه الحمى المعتمد من قوة العشيرة ، أو موارد
الآباء ، أو ذكريات سيادة بادت ونحوها ، لاعلوه الأدنى للاستمداد من فضائل النفس وجلائل
الاعمال وشرف المبادئ ، والقيم .

«ولكنه يظهر فسادَه في ميزان الحقيقة بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) .

● فُتِمَتْ زَيْنَتَانِ :

× زينة الدنيا في قلوب أهلها . . وهى زينة تتعلق فيها الهمة بأمور حسية
بحسبته كالتى ذكرنا .

× وزينة الإيمان في قلوب أهلها . . وهى زينة تتعلق فيها الهمة بمعقولات
معنوية ، هى التى قال فيها القرآن : إنها فضل الله .

وأهل زينة الدنيا ليست لهم الحاسة التى تبصر المعقولات ، ولذلك لا تعلق
لهم بها ، ولا تفاعل ، ولا تعاطف لهم إلا مع قيم الحس ، ولا مرجع لهم فى قياس
أقدار الرجال إلا ما تقرر لهم مقاييس عرفهم الحسى ، وقديما قال أهل الطائف
لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى القرآن : (لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا
الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيتَيْنِ عَظِيمٍ) (٢) وهم يريدون بالقريتين :
مكة والطائف

وحين نقرأ فى القرآن وصف الذين أعرضوا عن رسالات السماء بأنهم :
(صُمُّ بُكْمٌ عُمْى) فالمراد هو فقدانهم تلك الحواس الباطنة التى لها خاصية
لبصار المعنويات وإدراكها . .

ومرادنا أن « حب الإيمان » فى القلب فرقان يفرق به الإنسان بين
المحسوسات الباطلة والمعقولات الشريفة : فيقوم ذوقا عاليا فى الضمير يتحول به من

حب العرض الأدنى إلى المحقائق الإيمان من نفاسة وبهجة .. كما يقوم فيه حاسة تبصر
« الحق » في أفعال الناس وأقوالهم ، وتعرض عما عداه من الأشكال والمظاهر ،
إذ الأعمال في تقديرها إما هي صور للنفوس يترأى فيها ما لها من إرادات الحق
وخصائص الصديق والبر . وعلى قدر ما يسفر عنه الاختبار ينزل كلا منزلته ..
وهذا باب متعدد الآفاق بعيد الأعماق ، وله في المجتمعات طرائقه ، ومنطقه ، وآثاره
ولسنا بصدد شيء من ذلك فنكتفي بأن نقدم فيه قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ
مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ..
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَضْطَعْ مَنْ أَغْفَلْنَا
قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ^(١) ﴾

(ج) إن حب الإيمان وزينته في قلب المؤمن يفوق حب أي شيء آخر ، لأن
الله تعالى هو الذي جعله كذلك ، إذ سماه وضاعفه : (حَبِّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ) ،
وكذلك جعل الله كرهه الباطل - وهو الكفر والفسوق والعصيان - يفوق كرهه
أي شيء آخر ... ومن هنا نجد المؤمن - إذ حُبب إليه الحق - يغار على حرمة
أشد الغيرة .. وإذ كُرِّه إليه الباطل يثور على معالمة أشد الثورة .. وهو في غيرة
على الحق ، وفي ثورته على الباطل مجاهد ، ينفق جهده .. ووقته .. وماله ..
ونفسه ، دون أن يدعو أحداً إلى ذلك ؛ لأن الداعي إليه هو النداء العميق الذي
يستحس منه داخله : هو الحب المبارك لدى ضاعف الله طاقته ، والبفض المقدس
الذي أذكى الله جذوته .. وهو بين الطاقة التي لا مدى لقوتها ، والجذوة التي لا فرار
له على أمحها ولهبها ، لا يجد أمامه من شأن في السلم أو الحرب إلا غاية واحدة
حكيمة تتضمن أكرم تكليف ، وتستوعب كل ما لوجوده من مقومات مادية

ومعنوية : أن يطهر الأرض من الباطل ، وأن يعمرها بأحكام الحق وأوضاعه ..
* تلك ثلاث حقائق إيجابية تتضمن خصائص الإيمان في النص الكريم ،
ومؤداها أن نموذج الصفات الذى نحن بصدده ليس أمرا نظريا مجرد التقرير وإيراد
القائدة . إنما هو طاقة من الإيجاب لها أذواقها وحواسها على غير ما نعهد من
الأذواق والحواس .. ولها إرادتها التى تفرضها على ظاهر الحياة بإقرار مثل
وغايات عليا على غير ما يعهد الناس من الغايت والمثل .. ولها ميزانها الذى أبطل
عبث الأهواء والغرور فى تقدير الرجال والأعمال . فسلم للحياة أهم مقوماتها
بلا زيف .

* وقد تبين بمناقشة هاتين الحقيقتين أن هذا الكيان يجتمع له بحكم الحقيقة
الأولى : العلم الذى يتضمن ركائز الحضارات من الحق والخير والعدل . ويمجد به
الخليفة منهج خلافته شاخصا فى ضميره .. ويجتمع له بحكم الحقيقة الثانية : خصائص
الإيجابية النازعة بكل طاقتها لقرض مناهجها فى ظاهر الحياة ، .

فهو — إذا — جهاز منفعل بعوامل الهية لتحقيق مقتضيات الخلافة
فى الأرض ..

٣ — الجوهر الروحى للخلافة :

كل هذا فى تحليل الجانب الروحى لمقومات الخليفة .. ولنسكن على ذكر من أن
مقومات جانبه الحسى . هى جوارح بدنه . ومواهبه الرياضية . وإدراكه الحسى ،
وهى المقومات الخاصة بالاتصال بعالم الطبيعة وقوانينه وطاقاته ، لإنشاء ، وصنع ،
 وإنجاز ما تقتضيه الخلافة من شتى المرافق ومطالب العمارة ..

وتفصيل الكلام فى الجانب الحسى نراه من قبل تحصيل الحاصل ؛ فالحضارة

القائمة تمثله وتفصله علما وعملا ، ونظرا وتجربة ، وتطبيقا ، فالكلام فيه لا يذكرنا بمهل ولا مجهول . . أما الجانب الروحي فهو المهمل عند الكثير من الناس والمجهول عند أكثرهم . . ذلك إلى أن هذا الجانب هو الوصى أو القيم على إمكانات الجانب الحسى ومواهبه ، ليشغلها بما يرسم لها من غايات الحق وسبل الخير . ويعصمها أن تكون فى ولاية الأهواء الفاسدة المدمرة . . هذا إلى أن الإنسان إذا عرف مقومات هذا الجانب ، وعرف غايته فى الحياة . عرف نفسه ، وعرف مكانه فى الوجود العام ، لافى هذا الكون الطبيعى غيب ، وهذا كله لا يجعل الكلام فى الجوهر الروحي للخلقة والخلق من قبيل تحصيل الحاصل .

لقد قدمنا أن الإنسان جاء هذه الأرض وهو مؤهل بخاصيتين . . إحداها عقلية من شأنها أن ترى الكائنات خلقا معزواً إلى خالقه ، ليس فيها شئ قد خلق نفسه . وهى فى الوقت نفسه صنعه تعالى ، فيها من معالم الإتيان والحسن ، وآثار صفات الجلال والجمال ما يجعل الكون يبدو للفكر معرضا عظيمافريدا لصفحات حافلة بآثار صفات الخالق تعالى . . وتلك الآثار والمعالم تجمعها كلمة « الحق » لأنها آثار صفات الخالق جل شأنه .

وأما الخاصية الأخرى فهى خاصية الروح التى نفخها الله فى الإنسان ، وهى معدن خصائص علوية كامنة فيها كونه البذرة الصالحة فى التربة المباركة الطيبة ، فلا تهتز بالحياة . ولا تؤتى زهرها وثمرها إلا إذا نالت زادا وريها . وما زادها إلا آثار الحق ومعارفه التى قدمنا . .

وهذا أمر خطير ، لم يقدر لحيوان ، أو ملك ، فالإنسان البشر الأرضى جهز

ذهنه بملكات كاشفة يكتشف بها « أفقا علويا » ، غير أفقه هذا الحسى الطبيعى ؛
أفقا ملؤه الحق الذى لا تنفى ^(١) مادته ؛ وجهاز فى الوقت نفسه بخاصية روحية ذات
أشواق وحاجات ضرورية إلى مادة هذا الحق . . . وسبيل استنزال تلك المادة
أو استيرادها من أفقها الأعلى هو أن تكون إرادة الإنسان مع حاجة روحه ،
فيوجه خاصيته العقلية إلى مجال رؤيتها ليؤدى حق التفكير فيما فى الخلق من عبر
وآيات . . . وهذا التفكير — إذا كان سبيل معرفتنا بالله — هو فى الوقت نفسه
السبيل — أو الإجراء — الذى نستنزل به ، أو نستورد ما نريد من مادة الحق
وخاماته وخبراته .

والخاصية الروحية لا تسعد ولا تفرح لمجرد حصولها على ما تريد ، فإن تمام
سعادتها أن تعيد تصدير هذه المادة — مادة الحق — إلى أفق حسنا الدينوى فى
صورة أعمال نبتنى بها وجه الله وطاعته . . .

لقد وهب الإنسان خاصيته تلك لالتكون مجرد شرف يزكى بشريته ، ويفير
ظلمته ، وينسبه إلى السماء ، فذلك فهم بعض الصوفية السليبين ، إنما وهبت له
وقد ضمننت من أصول الحق وخصائص الإيجاب لتؤدى مهمة فى الأرض ذات شأن . . .
فإذا استنزل لها الإنسان واردات الحق من معرفة الله . وتفاعلت حقائق كل منها
بالأخرى نشأت فى الضمير الأذواق الجديدة ، والحواس التى تحدثنا عنها منذ
قليل ، فلا تكتمل بهجة الروح ولا تسعد أشواقها إلا أن تصدر حصيلة ما

(١) لا نريد بالمادة هنا الاستعمال الذى يقصرها على الأشياء الحسية الكثيفة ، إنما نريد
حقيقة المدد الذى يزيد به الخير ويعلو به الشأن على نحو ما جاء فى كتب اللغة « المادة
الزيادة المتصلة » وعلى نحو ما جاء فيها أيضا : « الأعراب أصل العرب ومادة الاسلام »
وفسره عمر بقوله : « كل ما عنت به قوما فى حرب أو غيرها فهو مادة لهم » . . . والحق على
هذا هو المادة الحافلة التى يجد فيها الروح ما يريد من أسباب الحصب والإيجاب والشم

لديها من المعارف والقيم والمثل إلى أفق حسنا الديوى ، تحقيقا لمهمتنا ذات الشأن ،
ولذا كان العمل فى الإسلام هو الصورة الحسية لحقائق الإيمان ، أو هو الإيمان
فى طوره المحس الذى تجده الإنسانية جناه أو ثمرته الأخيرة ، فلا إيمان بلا عمل
لأن حقائقه إذا وجدت فى الضمير تطورت — ولا بد — إلى عمل : ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، ولا عمل فى ميزان الإسلام بدون إيمان إلا عمل القلب
الفارغ ، فهو صورة بلا روح . . .

وذلك مبحث لسنا بصدد تفصيله وإيراد أدلته من كتاب الله ، والمقام يقتضى
أن يعلم الإنسان أنه إذ يستمد مثله وقيمه ومادة معارفه وعبره من أفق الحق الأعلى ..
الذى قررنا ، لى يقرها فى هذه الأرض سلوكا وأوضاعا ومعاملات وعرفا صالحا ،
إنما يهب لعالمنا الطبيعى هذا أمرا ليس من طبيعته ، أو يدخل على أرضنا هذه لونا
ليس من قبيل مادتها وعناصرها .. فهو حامل « روح » من أفق إلى أفق ..
وجالب « حق » من كون إلى كون .. وناقل « رحيق » من عالم قدس إلى عالم
يراد له أن يتقدس كل ما فيه من أعمال العباد ومجتمعاتهم ... وذلك لب عمل
الإنسان فى الخلافة ومجمل إشارة إلى خطورة مقامه ، وبهاء مركزه فى
الكون العام !

والآن هل عرف الإنسان « المادة » التى يصنع بها دوره فى الخلافة ؟

ولست أريد المادة المحسة التى يشيد بها المدن والحصون ، والقلاع والأبراج ..
والعمائر والصروح ، وينشئ النرع والجسور ، والفناطر والسدود والخزانات ..
ويقسم المؤسسات النافعة ، والمصانع ، فإذا الآلات التى تصعد أو تهبط ، أو تجر ، أو
تحمل ، أو تدو ، أو تطير .. أو ننحوها ، لأريد تلك المادة التى قوامها الحجر والخشب

والوان المعدن ، فتلك إمكانات جعلها الله لتكون عدة للإنسان فيما يكون يصدده من مقاصد ومطالب خلافته .. إنما أريد « مادة الحق » التي هي قوام الأعمال كافة ، وروحها ... فعمل الإنسان مؤلف من أمرين : صورة ظاهرة .. وروح باطن .. فالصورة الظاهرة ، هي ماتوديه الجوارح من حركة منظورة .. والروح الباطن ، هو الحق الذي يستنزه الإنسان من أفقه الأعلى ؛ وما على الإنسان إلا أن يجعل أعماله كلها بنية ابتغاء مرضاة الله ، حتى تكون النية قد اسكت كل عمل من أعماله حظه من روح الحق ويكون العمل بهذا الروح كأننا حيًا له حياته المقدورة بميزان الحق عند الله ..

وإذا كان لب أعمال الخلافة — على ما قررنا — هو اقتباس « روح الأعمال » من علمها .. وإبداع صورة ظاهرة لها ، كان معنى ذلك أن لب أعمال الخلافة هو « أن يبدع الإنسان نوعا من الكائنات الحية » .. كائنات ليست من قبيل كائنات الطبيعة في الشجر أو الحيوان أو الإنسان .. كائنات ، من أمر الله ؛ فكل كلمة منه كأن حى .. وكل إشارة وكل نظرة ، وكل حركة ، وكل فعل ، كل شيء من ذلك كأن حى ، يحيا حياة لا بدرى كنهها في ضمير الوجود وظاهره .. ففي ظاهر الوجود يكون للأعمال ثباتها وقوة تماسكها واستقرارها كما يقول تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) وفي ضمير الوجود — أى عند الله — يكون لها حياة تنمو بها وتربو ، كما تنمو وتربو أحياء الطبيعة التي نعلمها ، على كيف لا ندره ، ورسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : « ان الله يقبل الصدقة ، ويأخذها يمينه ، فريبتها لأحدكم كما يرى أحدكم مهره ، حتى ان اللقمة تصير مثل الجبل ^(١) » . . . والله تعالى يقول : ﴿ يَحَقُّ لِلَّهِ الرَّبَّاءُ وَيُرْبَى الصَّدَقَاتِ ^(٢) ﴾ ، ويقول : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ ^(٣) ﴾ ، وهو قول عالم السر وأخفى المحيط بما يتضمن ضمير الكون من حقائق وعجائب جلت عن أن تدركها مواهبنا المحدودة بحدود الحس . فلو أتيح لأحدنا أن يبصر المعنويات لا يبصر تلك الحقائق ، أو تلك الكائنات في عالمها الحق ، تنمو نباتها وتثمر ثمرها ، ولأدرك بذلك حقيقة المثل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ^(٤) ﴾ .

هذا ، وحياتنا الدنيا تلك ليست هي كل مالنا في الكون من وجود ، إنما هي طور من أطوار هذا الوجود ، له خصائصه التي تصله بما بعده ، وهو الدار الآخرة ، فهي بالنسبة الآخرة بمكان المقدمة من النتيجة . . . ومن خصائصها أن أعمالنا التي تتضمن روح الحق إنما هي بذور نبذرها ونجني حقيقتها ثمرها في الآخرة ، بعد أن يكون المؤمن قد جنى منها في الدنيا عزة التمكين وشرف

(١) رواه الترمذى وصححه ، وجاء المعنى نفسه في حديث آخر رواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى وابن خزيمة في صحيحه

(٤) إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥

(٣) الروم : ٣٩

(٢) البقرة : ٢٧٦

المنزلة .. ولذا كانت الدنيا مزرعة الآخرة .. وذلك باب خطير من الحقائق لا نعرض له ، وحسبنا أن الله يقول : ﴿ إِنِّي سَجَّاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فلنكتف بما قررنا من شأن الخلافة في الأرض ، ولا شك أنه شأن جليل يعوق فكرتنا عنها ويعلو سعى الإنسان بها في ظاهر الكون وباطنه ، على مثال يثير الجدل والمهاجة ، ويرفع قدر الإنسان بين الأحياء ، بل على الأحياء كافة ، ويحمل أثره في الحياة فذا لا يدانيه في جلالاته أثر .. وحسبنا أنه إبداع كائنات عجب من أمر الله ، لها فعل السنن في تركيبة المجتمعات ، وإثراء ضمير الكون بما لا يعلم قدره من الحقائق ، حتى لتكون الكلمة منه ، كشجرة طيبة ، أصلها ثابت ، وفرعها في السماء .

أيها الإنسان ! هل عرفت من أنت ؟ .. وهل عرفت عظمة وقدر ما أسند إليك ؟ ... إن الملك أعجز من أن يفعل ذلك .. وإن قوانين الطبيعة التي تصنع لنا كل شيء أعجز من أن تفعله ... وإنه تعالى وحده هو القادر على أن يفعله .. واسكنه جل علاه شاء لك أن تنوب عنه فيه ، وأن يستخلفك فيه عنه ، فجهزك بما جهزك ، وإنه لشرف سابغ ، وكرامة عالية أن تقوم عن الله هذا المقام ، وأن تؤدي ما عليك فيه .. فانظر كيف تتجانس مع شعار هذا التكليف الجليل ؟ .. إن الشيطان حسدك — بل احترق من الحسد — أن وسد إليك هذا المقام الجليل فلم يسجد مع الساجدين لك ، فطرده الله إلى لعنته ، فانظر على ضوء هذا أين تكون !!!

الباب السابع

مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى إِلَى أَفْئِ الْغَرَائِزِ

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ
وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ
(البقرة : ٣٥)

اولا : فى الملائة الاعلى

تمهيد :

روى الترمذى فى آخر كتاب التفسير بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس ، فقال : الحمد لله ، فحمد الله بأذنه ، فقال له ربه : رحمك الله يا ادم ؛ اذهب الى اولئك الملائكة - الى ملائمتهم جلوس - فقل السلام عليكم ... فقالوا وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع الى ربه فقال : « ان هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم » .

فرغنا بعد كل ماتقدم من عرض خصائص تكوين الإنسان أو عناصر « التصميم » الأزلى التى أراد الله سبحانه أن يبرأه على رسومها إنسانا سويا . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا بهذا الحديث عن بدء ظهور الإنسان ، من حيز التقدير الإلهى إلى حيز الكائنات التى تزاوَل اختصاصها فى هذا الوجود ولقد قررنا فى غير موضع مما مضى أن الروح الذى نفخه الله سبحانه ليس مرادا به إجراء الحياة فى كياننا المادى الحيوانى ، إنما هو السر الذى يهب لهذا الكيان خصائص الصفات الكريمة ، ويمده بفقهِ ونور ومرونة تجعله مهيأ للاستجابة والاتصال بما شاء الله من آفاق هذا الوجود وكائناته الظاهرة والخفية .

فهناك - إذا - نعمتان كبيرتان تملآن كيانك كله .

نعمة الحياة التى يحيا بها بدنه .

ونعمة الروح القدس الذى يمد هذا الكيان بحياة أسمى من التى يحيا بها .. حياة تنشئ فى النفس عصباً لا كالأعصاب ؛ عصباً من النور الربانى يصل وجدانه بضير هذا الوجود ، ويصل ضمير هذا الوجود بوجدانه .. عصباً دائماً الاختلاج

والاهتزاز بكل ماله من أثر في هذا الكون ، دقيق التأثير بكل ماله سبحانه من
نعمة ، مرهف الحساسية بسر صفاته المبنوثة في كل ما خلق .. فهو ملكة نورانية
تملاً كيانه كله بنور الله ، وبها يكون قفقه وحسن تقديره للقيم المختلفة ،
وما يرى له من كريم الصفات وجميل السيرة ، وما يتوالى عليه من
أسرار السكينة والتأييد .

فهي حياة لا ينمو بها كيانه المادى ، بل يحيا بها وينمو بسرها كائنه المعنوى ،
وتثمر له هذا الثمر الذى أثمرنا إليه . . . أما ثمرها في أفق محساته فهو تلك المرونة
الذهنية الجامعة : التى تصله بما حوله في أفق الطبيعة ، وتنظم له علاقته به ، وتيسر
له سبل تمييزه ، والحصول على منافعه .

في الملا الأعلى

وقد افتتح آدم عليه السلام وجوده بهذا كله ! . . انبعث كيانه الروحى
أمرًا من الحس المشرق الدقيق فواجه هذا العالم الأكبر بنور بصيرته ونور بصره
ويحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أول ما كان من آدم أنه عطس .
واسأنا ندعى علم ذلك العطاس ، ولا نحاول أن نمكف له علة ، فشئون الملائ الأعلى غير
شئوننا في عالمنا هذا الطبيعى ، وكل مالنا من علم به أن آدم عليه السلام رأى فيه
نعمة أوجبت أن يفتح عهده في هذا الوجود بحمد الله سبحانه .

واقدم شمت الله آدم إذ عطس وحمد ربه ، فقال له : « رحمك الله يا آدم »
ولا يجوز أن نتصور لهذا التشميت صورة ما يكون بيننا ، ويكفى أن نشير إلى
حالة من صفاء الخاطر ونشاط النفس تحل غالباً بالمرء السليم المعافى كلما عطس ،
كأنما نبسه تيار من اليقظة والتنبيه ، طرد ما كان فيه من روادى الأذى ، وأهقب
دقة من الحيوية المجددة يسمر بها الإنسان من حال إلى حال . . . وقد عطس آدم

حينئذ فكأنما اندفعت عنه ظلمة الركود ، وأعقبها الشعور بهجة الحياة وجمال
ما أفيض عليه من نعمة وروعة ما يرى في ملكوت الله من حسن ونور .

ولقد قلنا إن آدم عليه السلام واجه هذا العالم الأكبر بمخائص بشرية ،
بخصائص روحانية ... ومن البديهي الذي لا بد من الإشارة إليه ، أن ناحية
البشرية فيه لم تكن قد زاولت اختصاصها من قبل ؛ ولم يكن لديه من
رصيد تجاربها قليل ولا كثير !

والفرق بين خصائص الإنسان البشرية والروحية ، أن البشرية تمثل النواحي
القابلة فيه للتطور بحسب كثرة التجارب وقلتها .. أما الروحية فهي من أمر الله ،
لا تتغير ولا تتطور ؛ فاستعدادنا الفطري لمعرفة الله والإيمان به لم يتغير منذ عهد
آدم إلى الآن ، وإن يتغير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. والنور الذي
يسطع على قلب الرجل البدوي فيذكر به روح الخشية من الله ، هو هو النور
الذي يسطع على قلب العالم وسط أجهزته ومعامله ، وأمام مناظره ومخايره ، وإن
كان ثم فارق في عمق النظرة وتنوع معاييرها ، وتعدد آفاقها ، وما ينبع ذلك من
غنى الفكرة وفرة حصيلتها من رحيق العبر ، وحقائق معرفة الله .

ومعنى هذا ، أن آدم عليه السلام واجه هذا الوجود لأول عهده ببشرية
ملساء ، غفل من كل تجربة سابقة ، وواجهه في نفس اللحظة ببصيرة ساطعة ،
وملكات روحية مرهقة .. رأى أن الشاعر التي كان يتجاوب بها مع كل ماحوله
يغلب عليها العنصر القدسي والاضطباغ بصبغة الجانب الروحي ؛ وبهذا كان عليه
السلام إنسانا ساميا جدا ، له قلب وتصرف في ملاربه الأعلى ، دون أن يجد
ضرورة لمجاهدة نفسه استبقاء لهذا النور ، أو يرى حاجة لكبح غرائزه تنليها

لخصائص الروح ، فإن النور مشرق لا تكدره غريزة ، وخصائص الروح غالبية لا تجد ما يناهضها من قبل بشريته .

بين الدين والعلم

والحديث الشريف يحدثننا عن بعض تصرفات آدم عليه السلام في الملائكة الأعلى ، فقد أمره الله سبحانه أن يذهب إلى ملائكة الملائكة فيسلم عليهم ، فذهب وسلم ، فردوا عليه السلام .

والقرآن الكريم يظهر هذا الحديث ، ويدكر لنا ما هو أعجب من التسليم والاحية : يدكر أن آدم قام من الملائكة مقام العلم ، فعلمهم بإذن الله ما لم يكونوا يعلمون : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ، وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ؟ ﴾ ، وحسبنا أن أول ما يجدم من تجارب هذا الوجود هو رؤيته الملائكة وهم يسجدون له تحية واحتراف وولاء .

كيف كان آدم عليه السلام يرى الملائكة ويسلم عليهم ويسلمون عليه ، ويسجدون له ، ويسمع أصواتهم ويسمعون صوته ، ويعلمهم ويتعلمون منه ؟ وهل تم ذلك بملكاته الروحية ، أو بحواسه العادية ، أو بهما معا ؟ .

لم يدكر لنا الحديث الشريف ، ولا القرآن الكريم كيفية ذلك ، فلم يبق لنا إلا التسليم بأنه رأى ما رأى ، واتصل به على الهيئته الكاملة التي خلقه الله سبحانه عليها : أي أن عينه العادية رأت ، وأذنه العادية سمعت ، إلى ما كان له من خصائص الإدراك الروحي !

ولقد قضى بعض الناس دهرا يتأرجحون بين الشك في ذلك واليقين به ، ويميلون إلى تأويل تلك المصوص القرآنية الواضحة تأويلا لا ضرورة له ، إذ

التأويل إنما يكون ضروريا حينما يتعارض النص مع حقيقة علمية ثابتة لا يتطرق
الشك إلى صحتها بحال من الأحوال ؛ فإذا لم يكن هناك تعارض فمن الإثم أن
نصرف الكلام عن مواضعه .

أما الاحتجاج بأن عقولنا لا تسبغ ذلك ، فإن العقل ليس حجة إلا فيما له
سلطان عليه ، أما ما يخرج عن دائرة سلطانه ويقع في منطقة غير منطقة تفوذه ، فمن
الإنصاف والكرامة ألا نجعله حكما في نفيه أو إثباته .

ولقد أصبح معروفا عن طريق العلم والدين أن هناك حدودا كونية لا تطبق
حواسنا إدراك ما وراءها ، ولا يتسنى للعقل اجتيازها لمعرفة ما هناك من حقائق ..
ذلك أن في هذا العالم من الأشعة الكونية ما لا يحيط بعلمه إلا الله ، وأن حواسنا
خصت من تلك الأشعة بحيز ضيق جدا لا نستطيع أن نتجاوزه ، فإذا كنا نرى
شيئا أو نسمعه فإننا لا نرى ولا نسمع إلا ما تصل إلينا ذبذباته وتموجاته .
أما ما يقع فوق هذا الحيز الضيق أو أسفله من سائر الأشعة فأماذ تسمع
لا تستطيع حواسنا أن تستجيب لشيء من ذبذباته ، لأنها لم تهيا إلا للاستجابة
لما في حيزها هذا الضيق المحصور .

والعلم لا يحدد أن في الكون كائنات غير مرئية لنا ، ولا يحدد أن فيه أصواتا
غير مسوعة لأذاننا .

ولا يسبق إلى ذهن أحد أننا نغنى تلك الأصوات البعيدة التي يمكن التحايل
على سماعها بالوسائل العلمية « كالتليفون والراديو » ونحوها ، إنما نغنى أصواتا قد
تسكون أقرب إلينا من أى صوت آخر ، ولا نسمعها ، لا خلفاء جرسها ، بل
لمعجز طاقة السمع عن الاستجابة لذبذبتها ! ..

وكما يكون هذا في الأصوات غير المسوعة يكون في الكائنات غير المرئية ،

قد يكون الشيء قريبا منا ومع ذلك لا نراه ، لا لأنه يحتاج إلى « مكر سكوب »
أو نحوه ، بل لأنه ذو توجهات من قياس لا يتناسب البتة مع ما تستجيب له حاسة
الإبصار عندنا .

وفي قاعة الدرس والتجارب العلمية يمكن إحداث أصوات يسمعها الطلاب
وأحداث أخرى لا يسمعونها ، لمعجز آذانهم عن إدراك ذبذباتها .

كذلك يمكن إحماء قطعة من الحديد في نار حامية حتى تحمر ثم تبيض ،
فإذا بلغت الحرارة طاقة معينة يعرفها العلماء خفيت الحديدية عن الأنظار بحيث
لا ترى ، لأنها تبخرت بل لأن ذبذباتها أصبحت ذات قياس لا تدركه عيوننا .

ولا يستبعد العلم أن يتمكن الإنسان يوما ما من إحداث تغيرات في طاقة
السمع والبصر عندنا لنسمع أصواتا لم نكن نسمع ، ونبصر مرئيات لم نكن
نرى وصدق قول الله العظيم : ﴿ وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ^(١) ﴾ .

ولاشك أن عقائد المؤمنين تجد في تلك المقررات العلمية ما ينبح لها روضها
أقوى ، واستقرارا أعمق يزيد بها إيمانها بالله ، وتقبلها لما أنزل علينا سبحانه من
وحى مفصل على علم ولعل بعض الفيورين الذين يفرعون إلى تأويل كلام
الله يدعون مسارعهم إلى التأويل ، ويطمئنون إلى صدق كلام الله ، وأن ملا
يحدون له اليوم تأويلا في مقررات العلم سيأتي الغد إن شاء الله ، بتأويله ، إنجازا
لما قال سبحانه : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفْسَاقِ ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَقَيَّنَ
لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ^(٢) ﴾ .

فإذا قررت نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف أن آدم كان يرى

الملائكة ، ويستمع إليهم ، ويستمعون إليه ، ويتصل بهم ويتصلون به ، فهو التقدير الحق الذي لا ينكر منه العلم قضية واحدة .

وما يقال عن الملائكة يقال عن إبليس ، فقد رآه آدم وسمعه وهو يحاج الله سبحانه ، وقد رآه وسمعه وهو يقول له : ﴿ هَلْ أَدُتُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى ؟ ﴾ ، ﴿ وَقَالَسَمَهُمَا إني لَسَكَمَا إِيْن النَّاصِحِينَ ﴾

وبعد ، فهل كانت حواس آدم عليه السلام وهو بالملأ الأعلى ذات طاقة في الإدراك والإبصار والسمع ليست لحواسنا ، ثم طرأ عليه تحول عضوى بالأكل من الشجرة ، فهبط إلى مستوانا الذي ورثناه منه

أو كان لديه من ملكات الإدراك الأخرى ما استطاع به أن يرى ما يرى .. ومهما يكن من شيء فإن العلم لا ينكر الجن ولا ينكر الملائكة لأنه لا ينكر وجود أصوات لانسعها ، ولا وجود مريئات لا نستطيع أن نراها بما لنا من حاسة عادية ، ولا يسعنا إزاء ما قدمنا إلا أن نستقبل كلام ربنا بما هو أهل له من اليقين والتسليم غير منكرين منه كلمة واحدة ، ولا متأولين حرفاً ، فمن قال به صدق ، ومن حكم به عدل : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَنْبَابِ ^(١) ﴾ .

ثانياً : نحو أفق الغرائز

غريزة الزوج :

وحين آن لآدم عليه السلام أن يزاول اختصاص بشريته، وأن يتحول إلى أفق غرائزه ! كان أول غريزة نودى إليها « غريزة الزوج » ، وذلك قوله سبحانه : ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ .
وليس في القصة قبل هذا البداء ما يشير إلى هذه « الزوج » ولا كيف خلقت .
ولكننا نقرأ في مكان آخر من كتاب الله : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ^(١) ﴾ .

وهذه النفس الواحدة - بلا نزاع - هي آدم عليه السلام .. وخلق الزوجة من بدن الزوج وانفصالها منه أمر تقرره وتجري به سنن الطبيعة ، فإن تكاثر بعض الأحياء بطريق انقسام بعضها من بعض ، ثم تحولها إلى التكاثر بطريق التوالد أمر مقرر علمياً ..

فإذا قررت لنا نصوص القرآن الكريم أن أنثى البشر الأول خلقت منه هو نفسه بطريق الانقسام والانفصال ، ثم تحولاً معاً إلى سنة التكاثر بطريق التوالد المعروفة ، فهو تقرير يقرره العلم ، وتذهب إليه بعض مقرراته المؤكدة الثابتة ، ولعل في ذلك ما يوضح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان المرأة خلقت من ضلع » ^(٢) .

وعلماء النفس يتكلمون عن « الغريزة الجنسية » وعن « غريزة الوالدية »

ولكن ما جاء به القرآن أعق وأصدق وأشمل ، « فالزوج ضرورة فطرية أعق مما يتصور الناظر إلى الوالدية ، وشهوة الجنس ، هو نظام أزلى يلتزم به شمل كل ما نرى ، ويصلح عليه وجوده ، ويخرج به ثمره ، والله سبحانه يقول : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ، ولا يعلم أحد إلا هو سبحانه مدى سعة تلك « السكينة » التي تضمنها قوله : « كل شيء » فإنها في مفهوم اللغة تنسحب على الأشياء جميعاً ، ما نعلم وما لا نعلم ، من حى وجامد ، وصامت وناطق : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فنظام « الزوج » ليس دائرة ضيقة ، ولا أفقا محصوراً مقصوراً على الإنسان والحيوان والنبات ، بل هو سنة كونية دقيقة واسعة المدى ، وفطرة أزلية لا يلتزم شمل الشيء إلا إذا اتخذ مكانها الطبيعي في وجوده . . . فهناك حنين أزلى ، ونزوع فطري يتجاذب به « أزواج » النوع الواحد بعضها إلى بعض ، فلا يسعد شوق أحدهما إلى الآخر ، ولا يسكن قلقه ويكمل أمره ويخرج ثمره إلا أن يلتقيا على السنة التي قررها الله سبحانه لأفراد نوعهما ، وهل السالب والموجب في الكهرباء إلا زوجان ينزع كل منهما إلى الآخر ، ويرنو إلى الاتصال به ، فإذا لم يتصل فهو في كساد وعطل من حلية الثمر والعمل ، أما إذا اتصلا فما شئت من نار ونور وحركة وقوة وخير . . .

وقد خلق الله حواء لآدم ، وما كان سبحانه ليخلقها له إلا لأن خلقها تكملته لنظام وجوده وسداد لقراغ أصيل في جبلته ، أو لتكوين هي الطرف الآخر الذي يكمل به نسقه للمعنوى ونسقه الحسى جميعاً .

ولأمر ما احتج القرآن الكريم بذكر ملازمتها له في الجنة إذ قال سبحانه : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ . فهي ملازمة لا يفتنيه عنها أنه عليه السلام في الجنة .

وما حكم تلك الملازمة التي يعنى القرآن الكريم بتقريرها بينهما في ضمير التثنية باطراد إذ يناديها الله سبحانه : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ، وإذ يناديها : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجِكَ فَلَا يَخْرُجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ ، وإذ يناديها : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ، وَأَقْبَلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ؟ فإذا لم نقرأ أن نبيا من الأنبياء توجه إليه الخطاب مع زوجه من الله سبحانه ، إذ هي مكلفة بما خوطب به ، ولا ضرورة لإشراكها معه في الخطاب لأنها مستقلة منه ، وليس لتلك الملاحظة التي لاحظناها من توجيهه إلا الاحتفاء « بالزوج » وتقرير مكانه من فطرة البشر الأول ، ولزومه له في كل مراحل حياته ، وليس من المصادفة أنه سبحانه لما كتب عليه الخروج من الجنة ، أخرج إليه الخطاب مخرج التثنية فقال : ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ .

فالزوج في ذاته إن هو إلا شطر سنة من سنن الله يجب أن يلتزم مع شطرها الآخر ، ليكمل وجود المرء ، ويسكن قلبه المنفقت الحيران ، وهذا المعنى الدقيق هو الذي يلم به قوله سبحانه : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ^(١) ﴾ .

وليس هذا السكن هو سكن العاطفة العارضة ، أو الشهوة التي ألفت قضاء

الوطر في هذا المهاد : فإن القرآن صريح في أن السكن حاجة مقصورة على الزوج دون الزوجة ، بينما الشهوة حاجة قاهرة بكلتا الزوجين ^(١)

وجعل هذا السكون هو في سيره على ما خلق الله سبحانه له من سنن .. وبما أكرم الله به الإنسان أنه رزقه لذة الشعور بحمال هذه السنن ، فكما كانت النفوس راقية ، والفطر صافية كان شعورها بحمال ما خصصت به من سنن الله أوفر ، وكان انجذابها والتزامها لتلك السنن أقوى وأظهر .

وإنك لتجد هذا المنحى الجميل واضحا في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان إذا خرج إلى سفر أفرع بين زوجته لتخرج معه إحداهن ، وما نحسب أن شهوة الجنس — وهو يدرج إلى الستين — هي التي كانت تمل عليه هذا التعرف ، وإنما هي نفسه الصافية المشرفة التي ما كانت ترى لها سكنا ولا قرارا إلا في ظل سنة من سنن الله التي أعدت لها . « والزوج » سنة من تلك السنن ... وسره موكوز في فطرة كل نفس ، فإذا وجد صلى الله عليه وسلم في نفسه حينئذ إلى الزوج في البيت وإلى الزوج في السفر ، وإلى « الزوج » حينما كان ، فهو البشر المثلى لدى تجاوبت خصائص نفسه مع سنن الله في هذا الوجود ، تجاوب مسرة وإلف وركون إلى جمالها ، وإلى هذا المعنى الدقيق الكريم يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « حبيب إلى النساء والطيب ؛ وجعلت قرعة عيني في الصلاة (٢) » .. فهو عليه السلام لا يرمى إلى معاينة النساء وإصابة ما للدين من شهوة ، إنما يرى إلى جمال ما يذوقه في ظلالهن الرفيقة من لذة الأنس بسنة من سنن الله ..

ولعل مما يشير إلى تلك العجوة الموحشة التي لا يملؤها في كياننا إلا « الزوج » وأنها فطرة لنا ، وسنة لازمة لا نستطيع الفكاك منها ولا التعالى عليها أن الله سبحانه

(١) قررنا هذا المعنى بإيضاح في كتابنا الاسلام وقضايا المرأة المعاصرة

(٢) رواء أحمد والنسائي ، والمالك في المستدرک ، والبيهقي في السنن .

جعل الحاجة إليها شارة من شارات الضعف الذى ألزمه خلقه وتنزه عنه سبحانه أن يكون كذلك ، فقال جل شأنه : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ^(١) 》 .

فألفه سبحانه لا تحكه السنن ، إنما هو الذى يحكمها ويصرفها ويسيطر عليها ، أما نحن فنظام سعادتنا وجمال حياتنا هو مسابقة تلك السنن والاتساق مع مقتضياتها .

فالقصة الكريمة — وهى تقرر غرائز الإنسان الأصيلة فى بدء الوجود — جعلت أولى هذه الغرائز « غريزة الزوج » ... ونحن وإن كنا بصدد تقرير الغريزة فحسب لا بصدد شرحها وبيان حالها وأثرها الاجتماعى والعمرانى — لا يسعنا أن نمل الإشارة إلى سكوت علماء النفس وإغفالهم هذا الأفق الوجدانى العميق ، واكتفائهم بما سموه « غريزة الوالدية » ، « والغريزة الجنسية » نبيه إلى ذلك لنشير إلى لون من ألوان عمق الإسلام ودقته وشموله ، إذ يحيط بأفاق هذا المعنى إحاطة تلم بما يتعلق بالولد وشهوة الجنس ، وتذهب إلى ما وراء الولد والشهوة من أغوار النفس البعيدة ، حيث فطر الله معدن ما للإنسان من خصائص الرفعة والتكرمة .. حيث يبدو من عجائب إنسانية الإنسان أنها تنقسم زوجين : سالب وموجب ، وأن كلا من الشطرين يرنو إلى الاتصال بالآخر شوقاً لما ينفرد به من خصائص التكرمة ونفائس المثل . « ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » والزواج الكامل بين أفراد الإنسان — على هذا — هو ما رومى فيه أن يكون بين إنسانية إنسان وإنسانية إنسانة إلى أنه اقتران ذكر بأنثى .. وأجمل ما فى الإنسان إنسانيته ، فإذا ما حبي كل زوج فى الأفق الإنسانى للآخر فقد حيى فى سماء الجمال التى لا يفتأ يطالعها فيها شمس وكواكب من الفضائل والحاسن التى لا تقدر بقدر ..

* * *

غريزة حب الخلود :

فإذا تركنا غريزة « الزوج » عرضت علينا القصة الكريمة غريزة ثانية هي حب البقاء ، أو كما سماها في القرآن الكريم « الخلود » وذلك حين يقول الشيطان لآدم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ؟ ﴾ ، (مَا نَهَا كُُمَا رَبُّكُُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ ، أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ^(١)) .

فرغبة الإنسان في « الخلود » ليست رغبة عارضة ، بل هي سر متبعم فيه ما قامت فيه الحياة ، واستقامت له الظروف على ما يجب ... أى أن اتجاهه إلى « حب الخلود » اتجاه طبيعي دائم غير منقطع ولا موقوت بأجل .. وقد ورد في البحوث الخاصة بالغرائر عبارات : « المحافظة على النفس » ، « وغريزة المقاتلة » « وغريزة الخلاص أو الهرب » ، « وغريزة الاستغاثة » ، « وغريزة البحث عن الطعام » ، ولا شك أنها كلها معان تهدف إلى النشئ بالحياة ، ومداغة كل خطر يهدد بقاء الإنسان ، أى أن ماذهب إليه أصحاب البحوث يندرج تحت الميل الفطرى إلى « الخلود » ، وهو الميل الذى استغله الشيطان فى آدم عليه السلام حين وقف يزين له الأكل من الشجرة .

وقد يبدو للنظرة العابرة أن غريزة « حب الخلود » أصل فى فطرة الإنسان من « غريزة الزوج » فهى أولى أن تقدم عليها فى « قائمة » غرائز الإنسان ، لكن التأمل الدقيق لا يلبث أن يرينا غير هذا !

إذ ما جدوى حياة أو نعيم يشعر فيه المرء بالوحدة ، أو يشعر كأن جانباً من كيانه يملؤه فراغ مقفر ، وخلو موحش ... « فالزوج » هو تمام الوجود المعنوى للمرء

أو هو السالب للموجب ، والموجب للسالب في حياة الإنسان ... فليتم الوجود
أولاً . ثم لنعمل على « البقاء » والتمسك بأسبابه ؟

ولقد مارس آدم عليه السلام رغبات هذه الغريزة فبرزت إلى مجال نشاطها
لأول مرة حين رأت في ثمر الشجرة المحرمة سبياً يصلها بسر « الخلود » ... ولقي
آدم نداءها واستجاب لتزيتها ، فأكل من الشجرة ، وسجل الرقيب العتيد أن
« جهاز القرأ في آدم سليم في هذه الناحية .

غريزة الملك ؛ أو التملك

ومنه غريزة ثالثة تعرضها علينا القصة الكريمة ، تلك هي « غريزة الملك »
وهي القوة التي ناغها إبليس في آدم ونهبها في نفسه لأول مرة وهو يقول له :
(هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ^(١)) .

وقد تطنى غريزة التملك في الإنسان فيصير بها عنصر فساد في الأرض وآلة
تخريب وتدمير ، وقد تعتدل وتعلق بالأهداف السامية فيكون بها عنصر خير
وبر وعمارة .

وفي القرآن الكريم مثل تاريخية ، واقعية تبين طغيان تلك الغريزة في
نفوس أصحابها أو اعتدالها ، وتبين أثرها الاجتماعي في الحالتين ، ولكننا لسنا
بصدد بيان شيء من ذلك .

وقد أكل آدم من الشجرة استجابة لداعي تلك القوة الغريزية التي تنزع إلى
« ملك » ما يمكن ملكه .

وقد ذكر العلماء في قائمة غرائز الإنسان « غريزة الملك » وذكروا إلى جانبها « غريزة السيطرة »... ونحسب أن السيطرة نقوء يتفرع من غريزة الملك ليشمل التسلط على الناس بعد أن شمل معنى السيطرة على ما يحاز من أنواع المال والمتاع ، ولقد يعضد هذا ، أنها وردت في القرآن الكريم بضم الميم في لفظ « الملك » الجامع لمعنى الحياة والتسلط على الناس والأموال معا ولقد يستأنس له كذلك بكسر اللام في قراءة ابن عباس : (إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَسْلُوكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ ^(١)) باللفظ الجامع لحيازة المال والتسلط على الناس :

* * *

غريزة الدين :

ومن الغرائز الأصيلة في الإنسان « غريزة الدين » . . ومن مظاهرها الرجوع إلى الله ، والإنابة إليه ، والنزوع إلى غوته ورعايته سبحانه .

والفرق بين هذه الغريزة وسابقاتها أن الأوليات قوى بشرية تعمل في حقل حيوانية المروءة . . أما هذه فذات مجال علوى ، لأنها من خصائص الروح الذى فقحه الله سبحانه في الإنسان . . . فالأوليات ينزعن به إلى الأرض ، وهذه تذهب به صاعدة إلى السماء .

فإذا ما امتحنت الخصائص ذات الاتجاه المادى الحيوانى أن تسمى « غرائز » فأولى ثم أولى أن تسمى فطرة الدين « غريزة » لأن مدد الروح في الإنسان من أمر الله ، وهو أقوى وأدوم وأصل مما سواء .

ويظهر أثر تلك الغريزة بارزا قويا في حالتين متميزتين:

الأولى: حينما يقع أهل الغفلة والشرود عن الله في كرب لا تنفع الحيل والأسباب في دفعه ، وتغذوه حياتهم مهددة بالمصير الذى يهلعون منه ، وإلى مثل ذلك يشير قوله سبحانه: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ^(١)).

فهم حينئذ إنما يندفعون إلى الله بدافع الفطرة الخبوءة التى طالما تجاهاوها ، وأكثروا من إلقاء ركام الغفلة والشموات عليها حتى خيل إليهم أن ليس فيهم ما ينزع إلى السماء ، فلما جاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، وعجزت الأسباب أن تمد لهم يدا بمعونة ، تنحت الغفلة ، واحمر عن أذهانهم غرور الحياة الدنيا، فإذا بالقيض المحتبس ينبجس . وإذا بالقوة الطمور تنبعث، وإذا هم بلسان الفطرة — لا بلسان الإرادة — يذكرون الله الذى نسوا، ويدعونه تضرعا وخفية : (لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

وهذا الصنف من الناس لاخير فيهم غالبا ، فإنهم لا يلبثون — إذا نجاهم الله أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الأثم والغفلة : (فَأَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ^(٢)).

أما الحالة الثانية : فتقع اطراز من الناس أطف حسا ، وأرق بصيرة وأصفى نفسا.. فهم حين لا يستطيعون دفع غريزة، ولا مقاومة ميل إلى إثم ، ولا تبين رشد

وسط ما تنشره الشهوة المتأظفة من ضباب في أفق صوابه ، فإذا قضت النفس وطرها سكن دأبها ، وخد ثأثره وانحسر ضباب الشهوة عنه ، وصفا ألقه فإذا به أمام صحوة ضمير ، وبقظة روح ، وإشراق نفس ، فيتبين ضعفه أمام ما كان ، ويدركه الأسف ، ويثوره الندم ، وتضيق عليه نفسه ، فلا يجد ملجأ من ضميره إلا أن يقبل على الله تائباً مستغفراً ، وقد أثنى الله سبحانه على ذلك الصنف من عباده فقال :
(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِدُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا كَانُوا
وَهُمْ يَعْمَلُونَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَجَنَّاتٌ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١))

وتلك الحال الأخيرة تماثل ما ذكرت القصة عن آدم عليه السلام ، فإنه ما لبث بعد المعصية أن أشرقت فطرته ، فتبين شناعة ما أنى ، فلم يتمالك أن ضرع إلى الله من ذل معصيته : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢)) .

وبهذه التجربة الرائعة سجلت القصة الكريمة شاطا « اغريزة الدين » ، فعلمنا أن الإنسان محكوم بلونين من الغرائز : لون يمد له سبيل الفطنة والمعصية ، وآخر يمهده له سبيل الإنابة والمغفرة ، وذلك هو مقتضى ماسوى عليه من خصائص التراب وخصائص الروح ، فهو متنازع بين هذين الطرفين الفطريين : ظلمه ونور دنس وطهر .. معصية وتوبة .. وذلك شأن النمط الأوسط من الناس ، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

(٢) الاعراف : ٢٣

(١) آل عمران . ١٣٥ ، ١٣٦

ذليس من قصدنا أن نفصل أحوال الناس في التقلب بين هذين الطرفين ، واختلاف حظوظهم من الاستجابة لهذا النوع أو ذاك ، فذلك مبحث آخر ، فلتسجل ما تنص عليه القصة من أن الخطيئة بهض لوازمنا ، وأن الإنابة إلى الله من أسمى خصائصنا ، والأّ ذنب مع إنابة ، ولاخطيئة مع استغفار ، ولا عقوبة إلا مع إصرار ، وأنه سبحانه أمرع ما يكرن إلى عبده بالقبول حين ينكسر إليه ضارعا من فراش الذلة والخطيئة والمعصية : (فَمَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَلَبَّسَ عَلَيْهِ إِبْنُهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^(٢)) .

* * *

وبعد ، فهذه غرائز أربع كبار ، يتفرع منها مائر ما يعرف الإنسان من غرائز فرعية ، وميول آخر ، ومن مجموعها يتألف ما نسميه : جهاز الغرائز في الإنسان ، وقد قصت علينا القصة الكريمة نبأ التجربة الأولى لكل غريزة من هذه الغرائز ، وبهذا دخل آدم عليه السلام في أفق غرائزه بصفة عملية ، وأثبتت خصائص بشريته وجودها وصلاحياتها للاتصال بما حولها .

والكن القصة الكريمة لم تكثف في باب الغرائز بتقرير أسمائها ، وتسجيل تجاربها الأولى ، بل مضت في تحليل أخطارها وهبوطها تعليلا ندرك به سبب العصية والتأسك كما ندرك به سبب الزلة وانتقاض العروة على نحو ما نرى - إن شاء الله في الفصل التالي .

ثالثاً: الغرائز بين الفتون والرشد

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَنُوسٍ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) .

في هذه الآية الكريمة يذكر الله تعالى أن النسيان واحياء العزم هما سبب هبوط المرء إلى المصيبة ..

ونستطيع أن نقول — بناء على هذا — أن التذكر وانعقد العزم هما سبب صعود المرء إلى الرشد والخير .

والصعود والهبوط — في هذا المنام — أمران معنويان لا يدركان بالحس ، ولا يضبطان بالمشاهدة .. وما لم يكن هناك قياس يعرف به الصعود والهبوط ، أو ما لم يكن هناك مثل أعلى ينسب إليه سلوك المرء ، وتقاس به الأقوال والأفعال فيعرف الصالح والقاسد ، والطيب والخبيث فإن السبل تنبهم ، والأعمال تختلط ، والقيم تتشابه ، ويصبح الحسن والسيئ في ميزان تلك الفوضى متماثلين في الجزاء والتقدير .. لذا نرى الآية الكريمة قد تضمنت الإشارة إلى ذلك القياس وذلك المثل الأعلى إذ قالت : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ) . فعهد الله سبحانه من أمر ونهى ، هو المرجع الذي يرجع إليه لمعرفة على ضوءه صعود الأعمال أو هبوطها ، حسنها ، أو قبحها ، خيرها أو شرها .

فنحن — إذا — بإزاء أمور ثلاثة تقررها الآية الكريمة بشأن الصلاح

والفساد وهي :

* عهد الله الذي يصف لنا الخير فنقتبه ، والشر فتجنبه .

* نسيان العهد أو ذكره .

* احياء العزم أو النقاد .

* * *

أولا العهد

وفي الآية عهدان عهد الله بهما إلى آدم . . أحدهما خاص والآخر عام

فالعهد الخاص : حيث أمره الله . . ونهاه . . وحذره

* أمره أن يسكن الجنة هو وزوجه ، وأن يأكلا منها رغدا حيث شاءا

* ونهاه أن يقرب شجرة بذاتها بينها له .

* وحذره الشيطان بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ فَتَشْتَى ^(١) ﴾ .

والعهد العام : يتماق بفطرته عليه السلام ، إذ يقول تعالى في تقويمه الروحي ﴿ وَفَضَّلْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي ﴾ ، وإذ يقول تعالى في تقويمه العقلي : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . وقد قدمنا خصائص كل من التقويم الروحي ، والتقويم العقلي ولا سيما خاصيته المعنوية التي تدرك شواهد الربوبية والخالقية في الكائنات

ومما قدمنا في كثير من مواطن هذا الكتاب يتبين أن هذا الروح العلوي ، وتلك الخاصية الفكرية ، هما للتأهيل الخالق الوحيد في تكوين الإنسان الذي يقيم به شأنه في هذه الأرض على أساس معرفة الله ، فهما الجهاز الذي سوى عليه جماع تكوين آدم — أو الإنسان — ليكون بمحض للتكوين أو الخلقة مفطوراً على معرفة الله . . ولهذا دعاه الله تعالى إلى تلك الخاصية الفطرية ، ليبدل نهج نظره في الحياة بمعاييرها ، إذ قال : ﴿ قَامُوا وَجْهَكُمْ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ^(٢) ﴾ . قال القرطبي في تفسير الفطرة في تلك الآية : « وقال ابن عطية : والذي يعتمد عليه في تفسير هذه المفعلة أنها المخلقة والهيئة التي

في نفس الإنسان التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه (١) .

فهذا الاستعداد الخلقى الفطرى لتمييز مصنوعات الله والافرار برؤيته ، هو عهد من الله تعالى لآدم .. عهد تكوين وفطرة ، لاعداد وحى وشريعة .. وإذا كان هذا العهد قد بثت خصائصه وقواه في تكوين آدم ابتداء ، فقد انتقلت إلينا — نحن أبناءه — بطريق الوراثة تلك الخصائص والقوى ، فكانت هي التأهيل الأسمى الذى أعلن عنهم عهد الربوبية إذ قال الله تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَىٰ (٢) 〉 ، وبهذا العهد كانت للإنسان كافة — آدم وبنوه — صلاحية لتلقى وحى الله ، وحمل مافى كلامه ، ورسالة من أمرونها ، وحلال وحرام ، وعقيدة وشريعة .. ولهذا اجتمعت لهذا العهد مزايا العهد العام

* وما ينزل الله من عهد للناس ، أى من شرع يأمرهم فيه وينهاهم ، لا ينافى أحكام هذه الفطرة ، بل يوافقها ويؤكد بها .. ولو خلا الإنسان إلى فطرته — أى إلى عقله هذا الروحى — لاستقام على عهد الله ، وأفضل ما يتضمن من مثل عليا .. ولكن تلك الفطرة عورضت بما فى جانبها الحمى من قوى وميول ، حتى التى يسونها الغرائز .. أو بعبارة أصح عورضت بقابلية هذه الغرائز للانحراف عن هداية الفطرة بما يزين لها الشيطان من غرور وأهداف لا حقيقة لها .. وقد رأينا فيما تقدم كيف أن الشيطان حين سوك لآدم عليه السلام أن يأكل من الشجرة لم يأت به من قبل ضوابة الروحى ، بل من قبل غرائزه .. حتى تحولت عن عهد الله إلى ما أراد لها من المعصية .. ولكن كيف وقعت المعصية ؟ .. أو كيف كان النسيان ، فكانت المعصية ؟ .

* * *

نَسِيتُ الْحُوتَ . الْآيَةُ (١) ، وقول موسى للعبد الصالح عليهما السلام :
﴿ لَا تَوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ (٢)

وكذلك نستبعد أن يكون هذا الضرب من النسيان معناه ، فإن السهو يكفي
لقتنيه منه أقل إشارة أو حركة أو كلمة ، ولا يعقل أن يكون آدم أكل من
الشجرة ساهيا بعد أن ذكره الشيطان بما ذكره به .

٣ ، ٤ - وتم ضربان من النسيان بمعنى ذهاب الاهتمام بالشئ ، ومثاله في
القرآن قوله سبحانه : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (٣)

فالنسيان المسند إليهم معناه ذهاب اهتمامهم بأمره سبحانه ، فإن أحد هؤلاء
قد يأخذ في لهو الحديث ويشغل بالباطل من الغايات ، فإذا ذكرته بأمر الله لا
ترى عليه من هزة الاهتمام مثل ما ترى له حين تنبهه أن يأخذ عصاه أو مسبحته
التي نسيها ، بلى ترى آثار التهاون وقلة المبالاة التي تدل على أن عقدة العهد
قد انحلت من ضميره ، وبردت الغيرة عليه في قلبه . فهو - إذا - من نسيان
القلوب ، لا من نسيان الذاكرة ، أو غفلة السهو الطارئة .

أما النسيان المسند إلى الله فليس من نسيان العقول ، ولا من نسيان القلوب
تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - بل معناه أنهم لما نسوا الله وزال اهتمامهم
بأمره ، صرف عنهم فضله ووكلهم إلى نفوسهم .

ومن البديهي أن النسيان المسند إلى آدم حين أكل من الشجرة ليس من
قبيل النسيان المسند إلى الله جل شأنه ، فلم يبق إلا أنه من قبيل النسيان المسند
إليهم ، بمعنى أن قلبه صار إلى لحظة من الفتور عن عهد الله جل شأنه .

وقد قلنا إن الشيطان لا يأتي الإنسان من قبل صوابه الروحي ، فهو أعجز من أن يواجه هذا النور ، بل يأتيه من جانبه المطاوع — جانب الفرائز — وهو جانب يملك الاستجابة .. ولا يملك التمييز !! يملك الاستجابة لأي نداء ... من الملك ، أو الشيطان .. من الله ، أو من غير الله !!

وليس له ما يميز به ما يسمع من نداء ، ولا ما يدعى إليه من غاية .. فهو أذن سمعية ، وحركة مطيعة .. وليس عينا تبصر ، ولا عقلا يدبر .

فإذا سول الشيطان لتلك الفرائز أمرا من الأمور ، أوزن لها غاية من الغايات وهو لا يزن لها إلا ما تحبه — لانت لسماعه ، ومالت إلى اتباعه ... وكان لها من اللذة الحائلة . والسريان المذب ، والإغراء المطمع ، ما يجعل القلب يستحب الركون إليه ، ويأنس لمطاوعته والمزيد منه ، وينصرف بالتدريج عما لديه من أمر الله ، حتى يفقد مشغولا لأبخواط جديدة ، وآمال غير التي كان يتعلق بها ، وغايات غير التي كان يرسمها له إيمانه بالله .. وذلك هو النسيان القلبي !!

* * *

ثالثا : العزم

أما الأمر الثالث في الآية السكروية فهو « العزم » في قوله جل ثناؤه : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ ، ومن معاني العزم ما جاء في المصباح المنير : « عزم على الشيء وعزمه ، أي عقد ضميره على فعله » ، وما جاء في لسان العرب : « العزم ما عقد عليه قلبك من أمر أنت فاعله » .

فإذا نظرنا في معنى العزم في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَزَمَدْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَلَوُا كَلِمَاتٍ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْعَثُ عَلَيْهِ نَارًا وَلَمْ يَكُن لِمُوسَىٰ ذِكْرُ الْكَافِرِينَ ﴾ ، كان معناه : لم نجد له ضميراً منعقداً على الفعل ، أو كما يقول البيضاوي : « لم نجد له تصميم رأي وثباتاً على الأمر .. ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يجرب الأمور » فتكون جملة : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ ،

يعنى التفسير للنسيان فى قوله : ﴿ فَنَسِيَ ﴾

واحياء العزم هو الآفة التى تترتب لا محالة على النسيان القلبي . . . هذا ، ونسيان العهد لا يعنى احياءه من القلب ، إنما هو تنحيه إلى إحدى زواياه ، فلا يرى منه سوى صورته ، أما حرارته وروحه القوى المنهض فلا .. ومن هنا نرى الكثيرين يحسنون الكلام عن المثل العليا دون أن يؤثر عن أحدهم أنه نهض فعلا بحق ما يتحدث به ، وذلك بعض ما صدق به الشيطان ظنه على كثير من الناس إذ أقسم بين يدي الله سبحانه : ﴿ وَلَا ضَلَمْنَاهُمْ وَلَا مَنَعْنَاهُمْ ﴾

والتمية حالة يسكون فيها المرء على علم بما جاءه من الله ، دون أن يكون له نهضة إلى تحقيق شئ منه ، كأنما أصابه الشيطان بكساح العزيمة ! وليس هؤلاء من حقيقة الإيمان فى شئ ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ليس الايمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، ان قوما ألهمهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا الفضل له »

وقال الزمخشري فى تفسير قوله سبحانه : ﴿ يَدْعُهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ ﴾ : « وإذ أبطل الله الأمانى ، وأثبت أن الأمر كله معقود بالعمل ، وأن من أصلح عمله فهو الفائز . . . ومن أساء فهو المالك ، تبين الأمر ، ووضح وجوب قطع الأمانى ، وحسم المطامع ، والإقبال على العمل الصالح . . . ولكنه نصح بالتمية الأذان . ولا تلقى إليه الأذهان ! »

رابعاً : ختام إلى الأرض

قلنا فيما سبق : إن آدم عليه السلام استقبل هذا الوجود ببشرية مأساء غفل من كل تجربة .. وبروحانية صافية مشرقة لاتسكدرها شهوة قائمة ولا ظلمة خطيئة سابقة .. فهو كيان بشري في صفاء تام كامل ، يذهب ويحيى في ملأربه الأعلى ، ويسمع ويرى ، ويعمل مايؤمر به ..

أما غرائزه فكانت مستكنة لم تخرج بعد إلى حيز نشاطها الواقعي ! تلك كانت حاله الأولى لحظة استقبل فيها هذا الوجود ، ثم بدأت الغرائز الكامنة فيه تظهر وتنبعث متوالية على النسق الذي سجلته القصة الكريمة :

١ - غريزه الزوج .

٢ - غريزته حب الخلود ، والملك .

٣ - غريزة الدين .

وقد ذكرنا تلك الغرائز بشيء من التفصيل فيما مضى .

* * *

تطور :

وبظهور تلك الغرائز صار لأبي البشر عليه السلام مزاج نفساني جديد غير مزاجه النوراني السابق ... مزاج البشر الذي تفجرت في كيانه خصائص بشريته ، وانتشر فيها ما للغرائز والهوى من كدرة وظلمة .. لا مزاج الروحانية الصافية ، والبشرية الملساء الخالية من كل تجربة ، وذلك تطور نفساني ، وتحول معنوي ، نلاحظه ونسجله بين يدي تطور آخر من لون آخر سجلته القصة الكريمة ، وكان

له في حياة آدم — بلا شك — أثر خطير ، ذلك هو ظهور السوءات ، ما كان منها
خاصا بالناسل وغير الناسل .

وقد تولت القصة عرضه في نسق واضح لا يحتمل الغموض أو الجدل ،
فيقول سبحانه :

١ — ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ
مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ أَنَّهُمَا ^(١) ﴾

فهذا النص الكريم يثبت وجود سوءة لكل من آدم وحواء عليهما السلام ..
ويثبت بجلاء أنهما ما كانا يريان تلك السوءات ، وأن الشيطان كان يحتال « ليريهما
سوءاتهما » . وأن هذه السوءات كانت مستترة تحت لباس يغطيها ويخفيها .
ويقول سبحانه :

٢ — ﴿ قَوَّسُوسَ أَنَّهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا
مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ^(٢) ﴾

فهنا أيضا ذكر للسوءات ، ونص على أنها مغيبة عنها ، وأن وسوسة
الشيطان مضوبة إليها ، يريد أن يثيرها من مكنها ليبدى لهما ما وورى عنها ..
وقد تكلم علماء الإسلام وأئمة التفسير عن هذا اللباس ، فن قائل : إنه لباس
من ريش كان يستر جسميهما ، ومن قائل : إنه كان غشاء يلف الجسم كله من
نوع الأظافر ، ومن قائل غير ذلك .

وليس يعني أن نعرف كنه هذا اللباس ، فإن يترتب على معرفته أمر ذو بال ،
وحسبنا أنه كان لباسا يستر عن آدم وحواء ما لهما من سوءات .

ويقول سبحانه :

٣ — ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخِصِّمَانِ
عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ^(٣) ﴾ ، وبذا تم للشيطان ما أراد .

..ماذا كانت تلك الشجرة ؟ وما خصائص ثمرها ؟ .

وقد قيل في ذلك ما قيل ، وكله لاسنذه من كتاب ولا سنة صحيحة ، وحسبنا أن نعلم أن هناك صلة وثيقة بين طبيعة جسم الانسان ، والتركيب الغذائي لثمر تلك الشجرة ، صلة ترتب عليها ذلك التطور العضوي حين استقبل الجسم ذلك الثمر أو كل منه فانساخ عنه غشاؤه أو لباسه ، وبدا ما كان مستترا من سوءاته .

هذان لوانان من ألوان التطور : أحدهما نفسى انتقل به آدم من حال الصفاء إلى المزاج الذى يختلط فيه النور بشوب الهوى والشهوة ... والآخر عضوى ينتهى بالجسم إلى ظهور ما كان مخبوءاً من أعضاء .

وفى المقام دلالات على تطورات عضوية أشمل من ذلك ، وهى دلالات تدرك بملاحظة القرائن أكثر مما تدرك من نصوص الآيات .

فن ذلك أن نصوص القرآن الدالة على أن آدم كان يرى الملائكة فى الملأ الأعلى ويكلمهم ويأخذ منهم ويعطى ، تدل كلها على وقائع سبقت الأكل من الشجرة ، أما بعد الأكل ، فإننا لانجد نصاً واحداً يدل على أنه استمر يرى ويسمع ما كان يرى ويسمع من قبل ... فهل كانت حواسه عليه السلام وهو بالملأ الأعلى ذات طاقات فى الإدراك والإبصار والسمع ليست لحواسنا ، ثم طرأ عليها تحول عضوى بالأكل من الشجرة فهبطت إلى مستوانا الذى ورثناه منه ؟

إن تلك التغيرات التى ذكرناها ، من نفسية وعضوية إنما هى انتقالات يفقد بها آدم تجانسه مع الملأ الأعلى ليكتسب خصائص التجانس مع الأفق الذى يوشك أن ينتقل إليه ، ولعل مما يؤنسنا فى هذا المعنى قوله سبحانه : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ فالتبادر إلى الذهن أن « غوى » نحمل معنى الإثم والمعصية ، ولكن التأمل فى متن الآية لا يلبث أن يرى غير ذلك ، فإن قوله سبحانه

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ يحمل معنى الإثم والمعصية بصفة قاطعة ، فإذا قلنا إن «غوى» يحمل أيضا معنى الإثم والمعصية فقد أجزنا دخول الحشو في كلام الله - حاشاه - وهبطنا بالنسق الكريم إلى مستوى من الركاكة ينزعه عنه القرآن كل النزاهة ... وإنما غوى هنا من « غوى الفصيل » بمعنى فسد جوفه . . . ومعصية آدم التي ترتب عايبها فساد جوفه وتغير مزاجه هي الأكل من الشجرة ، والمراد هنا فساد عيشه بالجنة واضطراب حاله ، لا البشم الذي يكظ ويتخم المعدة ، والظلم الكريم في الآية يربط المقدمة بالنتيجة ، ويجعل افساد مرتبا على المعصية والأكل من الشجرة : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ . فَغَوَى ﴾ ، قال القرطبي في تفسيره الجليل : « فغوى - أى فسد عليه عيشه ، وحكاه القاش واختاره القشيري ... قال : وهو تأويل حسن وهو أولى من تأويل من يقول : « فغوى » معناه ضل ، من الغى الذى هو ضد الرشده . أ هـ

ذلك إلى أن خروج آدم من الجنة يشبر إلى أنه قد صار إلى حال من التغير أو التطور لا يلائمها البقاء فى الملاء الأعلى ... فإن خروجه منها لا يمكن أبدا أن يكون عقوبة على معصية ، وجزاء على خطيئته . فإنه قد تاب إلى الله ، وتاب الله عليه ، ولا عقوبة مع توبة ولا ذنب مع مغفرة ، بل إن مقتضى التوبة والمغفرة أن يظل على ما كان فيه .. ولكن كيف يظل فيه وقد نجا به الموضع وفقد التجانس معه ، ولكل شئ سببه ، ولكل أفق نظام حياته ؟ .. فإلى الأرض - إذا - فهى المأوى الجديد ، والمقام المتيد بعد أن فقد تجانسه مع الجنة : ﴿ اهبطوا منها جميعا ﴾ ، ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ ، ﴿ فِيهَا تَحْنُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ ، ﴿ فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْى هُدًى فَمِنْ تَبَعِ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

والحمد لله رب العالمين

فهرس

٥	مقدمة الطبعة الثانية
٧	» » الثالثة
٩	قصة آدم من آيات القرآن الكريم
الصفحة	الموضوع
	المفحة
	تمهيد
	١١ - ١٤
١٢	ملخص قصة آدم عناصر البحث

الباب الأول : التكوين

١٥ - ٤٠

٢١	مفنى الروح	١٧	عناصر التكوين
٢٥	خصائص العناصر	١٨	صلة آدم بمن سكنوا الأرض قبله
٢٥	خصائص الحس	١٩	عناصر الطين
٣٢	خصائص الروح		

الباب الثانى : آفاق التكوين

٤١ - ٧١

٤٩	الروح وضرورته للخلافة	٤٣	آفاق التكوين
الإنسان بين كيانه الحسى		٤٨	آفاق الروح
٥٠	وكيانه المعنوى	٤٨	استحالة معرفتنا لحقيقة الروح

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
أرزاقتنا بين المجال الحسى	٥٢	بين العقل الطبيعى والمقل الروحى	٥٢
والمجال الروحى	٥٧	بين العلم الطبيعى والعلم الروحى .	٥٥
مفاتيح السماء	٦١	بين المجال الحسى والمجال الروحى	٥٦
تقوى الله والأخذ بالأسباب . .	٦٣		

الباب الثالث : أفق الملائكة

٧٣ - ٨٤

بين نور الملائكة ونار الجن . .	٧٥	من خصائص الذور	٧٧
معنى السجود لأدم	٧٦	(خصائص الملائكة)	

الباب الرابع : أفق الشياطين

٨٥ - ١٠٨

أفق الشياطين	٨٧	الغى	١٠٠
كلمة عن الجن	٨٧	التزيين	١٠٣
من خصائص الشيطان	٨٩	تزيين المتاع النافه	١٠٣
شياطين الإنس	٩٥	تزيين الظاهر	١٠٤
حرب صفات لصفات	٩٧	تزيين الظنون والوهم	١٠٥
الحور الأصبل لعمل الشيطان . .	٩٩	تزيين الصل السىء	١٠٧

الباب الخامس : أفق المادة

١٠٩ - ١١٧

ضرورة العلم للخلافة	١١١	معنى الأسماء كلها	١١٢
-------------------------------	-----	-----------------------------	-----

الباب السادس : الخلافة

١١٩ - ١٥٧

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
في اطار الخلافة	١٢١	الإرادة بين نهج الخلافة وقوانين الطبيعة	١٣٥
من الخليفة	١٢١	هل الخلافة هي الانتفاع بثروات الطبيعة	١٣٦
الخلافة عن من	١٢٣	نحو أفق الروح	١٣٨
الخلافة عن الله	١٢٥	الخليفة بين الحس والروح	١٣٨
الخلافة وتوحيد الله وعبادته	١٢٧	هل حقق الإنسان في نفسه تقويم « الخليفة »	١٤٠
كلنا خلفاء	١٣٠	ما الخلافة : في تحليل السكبان الرباني	١٤٥
ظنون حول الخلافة	١٣٣	مدخل إلى الخلافة	١٤٦
الخلافة وسنن الطبيعة	١٣٣		
هل نهج الخلافة تكرر لقوانين الطبيعة	١٣٤		

الباب السابع

من الملائكة إلى أفق الفرائز

١٥٩ - ١٨٩

في الملائكة	١٦١	غريزة حب الخلود	١٧٢
بين الدين والعلم	١٦٣	غريزة السيطرة	١٧٤
نحو أفق الفرائز	١٦٨	الفرائز بين الفتون والرشد	١٧٩
غريزة الزوج	١٦٨	إلى الأرض	١٧٦

هذا الكتاب

- المعروف أن الله خلق آدم من طين ، ثم أسكنه هو وزوجته الجنة ، ولكن الشيطان دلاهما الى المعصية ، فأخرجهما الله من الجنة ، وأهبطهما الى الأرض ..
- فماذا في هذه القصة من المعارف التي تزكو بها حقيقة الانسان ، ويستنير عقله . ؟
- والانسان مع ما عرف من حقائق بطريق نظر « في الكون ، وفيما لديه من تراث بشري وسماوي - **عدا القرآن** - لم يصل الى ما يلقى ضوءاً على التقويم الخطير الذي يمثل « **إنسان** » وتلك الحقيقة تتمثل في معنى العنوان الذي اختاره « الكسيس كاريل » لكتابه المعروف « **الإنسان ذلك المجهول** » .
- **والقرآن الكريم** : ينفرد من كل تراث الانسانية بتحليل تقويم ذلك المجهول ... **تقويمه . الحسى . والروحي . والعقلي ..** وما يتصل بذلك من آفاق الكون . **أفق الروح ، والملائكة ، والشياطين ، والمادة ، والغرائز ..** ويزيد ، فيبين أن الخلافة عن الله تبارك وتعالى - هي منهجه في الأرض ومحور جهوده في الدنيا .
- **وهذا الكتاب** . يعالج تلك الحقائق - لأول مرة - بالشرح والتحليل . بأسلوب سهل مبسط ، في تنسيق جلي ، وافاضة ترضى المتطلعين الى المعرفة ، مع الحرص على ما لها من أصالة ، بحيث تجد فيها الفطرة السليمة مصداق قوله تعالى « **لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم** » .
- ويسر « **مكتبة وهبه** » أن تقوم بنشر هذا الكتاب الذي ينير الطريق أمام الباحثين عن مصادر وكيفية بناء الانسان . ويلقى الضوء على ذلك المجهول .